التسجيل الدولي ISSN 2305-591X

مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية

٧٩

Yanabee'a
ينابيع

مَجلّةٌ ثقافيّةٌ تُعنى بِنَشرِ فِكرِ أَهْلِ البَيْت عليهم السلام/ السَّنة ١٥/ العَدَد ٧٩ جمادى الأول - جمادى الآخر ١٤٣٩هـ/ كانون الثاني - شباط / ٢٠١٨ م

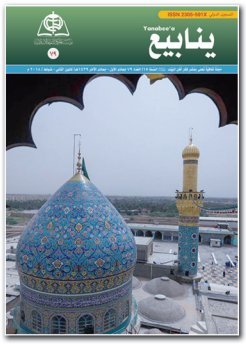

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٨٨٠ لسنة ٢٠٠٦

مسجلة في نقابة الصحفيين العراقيين برقم ١٣٩ في ١٦/ ١١/ ٢٠٠٥م

- المقالات تعبّر عن رأي أصحابها.
- يخضع ترتيب المقالات إلى ضوابط فنية.
- لا تعاد المقالات إلى أصحابها سواءً أنُشرت أم لم تنشر.

مجلة ثقافية تعنى بنشر فكر أهل البيت عليهم السلام

تصدر كل شهرين عن

مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية

1Z30959

المشرف العام
السيد عبد الحسين القاضي

رئيس التحرير
الحاج فلاح حسن علي العلي

مدير التحرير
حيدر الجد

سكرتير التحرير
حسين جودي الجبوري

التدقيق ومراجعة النصوص
سعد فخر الدين

التصميم والإخراج الفني
وسام مسلم المظفر
مسلم شاكر مالك

التنضيد الإلكتروني
ميثم عبد علي الزاملي

العراق ـ النجف الاشرف ـ حي السعد

العنوان الإلكتروني: www.Yanabee.org

البريد الإلكتروني: Yanabee_Mag@Ymail.com

ص.ب (٥٥٠) موبايل: ٠٧٨٠٣١٧١٥٠٥

أسعار المجلة: العراق ١٠٠٠ دينار. الكويت ٣٥٠ فلساً. الأردن ٧٥٠ فلساً. المملكة العربية السعودية ٣ ر.س. سوريا ٧٥ ل.س. وباقي الدول ١,٥ دولار أو ما يعادله.

قيمة الاشتراك السنوي لستة أعداد: في العراق للمؤسسات ١٢٠٠٠ دينار وللأفراد ٨٠٠٠ دينار وخارج العراق ١٠ دولار أو ما يعادلها.

قصيدة
في الزهراء عليها السلام

للشاعر الشيخ محمد حسن آل سميسم

مَـنْ مُبلـغٌ عـنّي الـزمـانَ عِتاباً ... ومُـقـرِّعٌ مِـنّـي لـه أبـوابـا
ومُـذكّـرٌ مـا راح مـن عهد الصِّبا ... لـو عـاد رائـقُ صـفـوه أو آبـا
أيـامَ أَفـتـرشُ الـنّـعـيـمَ أرائـكـاً ... وأعـبّ بـالـثـغـر الأنـيـق رضـابـا
وأداعـبُ الظبياتِ حتى خِلْتَني ... مِـن فَـرْط مِـا آتـي بـه تلعابا
يا ويـحَ دَهْـري راحَ ينزعُ للأسى ... مِـنْ بعدِ مـا ذقـتُ النعّيمَ شرابا
دهـرٌ تـعـامـى عـن هُـداهُ كـأنّـهُ ... أصحابُ أحمدَ أشركوا مُـذ غَابا
نكصوا على الأعـقـاب بعد مماتهِ ... سَـيـرون فـي هـذا النكوص عِقابا
سَـلْ عَـنْـهُـمُ الـقـرآن يشهدُ فيهمُ ... إنْ كنت لـم تَفقهْ لـذاك خِطابا

فكأنّهُمْ لم يشهدوا خّما ولا ... أُحُداً ولا بدراً ولا الأحزابا
وبخيبَر مَن راح يَرْفِلُ باللّوا ... مَنْ قَدَّ مَرْحبَ مَنْ أزال البابا
ومَن اشترى لله نفسَ محمد ... في نفسه لما دُعيْ فأجابا
مَن في الصلاة يرى الصِّلات فريضةً ... مَن نالَ خاتُمهُ الشريف جوابا
مَن بابُ حِطّةَ غيرُ حيدرة ومَنْ ... لمدينةِ المختار كان البابا
أَعجبتَ ممن أَخّروا مقدامهم ... بعد النّبي وقَدَّموا الأذنابا
قد أضمروها للوصي ضغائناً ... مُذْ دحرجتها للنّبي دبابا
لِيُنْفّروا العَضْباءَ في قُطُب الهدى ... حتى يعودَ الدينُ بَعْدُ يَبابا
نَسبوا له هجراً لخوف كِتابة ... فكأنهمْ لا يسمعون كتابا
ما كان ينطق عن هَواهُ وإنّما ... وحيٌ يُحيّى له النّبي خطابا

* * * * * * * * * * * * * *

يا بابَ فاطِمَ لا طُرقتِ بخيفَة ... ويدُ الهدى سَدَلت عليه حجابا
أَوَلست أَنت بكلِّ آن مَهْبَطَ ... الأملاكِ فيك تُقَبّلُ الأعتابا
أَوْهاً عليك فما استطعتَ تصدَّهمْ ... لما أتوك بنو الضلالِ غِضابا
نفسي فداك أما علمتَ بفاطِم ... وقفتْ وراك توبّخُ الأصحابا
أَوَما رَقَقْتَ لضلعها لما انحنى ... كسراً وعنه تزجر الخطابا
أَوَ ما درى المسمار حين أَصَابها ... مِن قبلها قلبَ النّبيِّ أصَابا
عَتَبي على الأعتاب فيها محسنٌ ... مُلقىً وما انهالت عليه تُرابا
حتى تواريه لأِن لا تسحق الـ ... أقدام منه أَضْلُعاً وإهابا
هو أولُ الشهداءِ بعد محمد ... ويرى المصابَ على الصواب صِوابا
ما استطاعَ يدفعَ عن أبيهِ وأُمّهِ ... فَمَضى لأِحمدَ يشتكي الأصحابا
لما عَدوا للبيتِ عَدْوةَ آمِن ... مِن ليث غِاب حين داسوا الغابا

لـو ينظرون ذُبـابَ صـارم حِيَـدْر ... لـرأيـتـهـم يـتـطـايـرون ذُبـابـا

لكنّهم عَـلِـمـوا الـوصـيـةَ أنّـهـا ... صـارت لـصـارمـه الصقيل قِـرابـا

فهناك قد جعلوا النّجادَ بِعُنْق مَنْ ... مَـــدّوا لـه يـومَ « الغدير » رِقـابـا

سَـحـبـوه والـــزهـــراء تـعـدو خلفَهُ ... والـدمـعُ أَجْـرتْـهُ عليه سحابا

فدعتهُمُ خَـلـوا ابـن عمي حيدر ... أو أَكـشِـفـنَّ إلـى الـدعـاءِ نِقابا

حـاربـتُـمُ الـبـاري وآلَ نـبـيّـهِ ... وعـصـيـتُـمُ الأعـــوادَ والـمـحـرابا

ونـكـثـتُـمُ كـثـمـودَ، هـذا صـالـحٌ ... لـم تـسـحـبـونَ الـصـالـح الأوابـا

رجـعـوا إليها بالسياط لِيُخمِدوا ... نـــورَ الـنّـبـي الـسـاطـع الـثـقّـابـا

فتهافَتوا مثل الـفـراش ونـــورُهُ ... قـد صـــارَ دونَـــهُـــمُ لـهـا جلبابا

* * * * * * * * * * * * * * *

أهم المواضيع

التفسير المغيّب في التراث الشيعي ١٠

التوجيه الدلالي لآية تعدد الزوجات في القرآن الكريم ٢٤

هل لهذا الكون من خالق؟ ٣٨

التسامح والتعايش السلمي في نصوص آيات القرآن الكريم ٨٢

عين علماء الشام أبو الصلاح الحلبي ١٠٢

السلطان جلال الدين محمد أكبر ١٠٨

كلمة العدد

عــود عـلى بـــدء ...
رئيس التحرير ٨

قرآنيات

التفسير المغيّب في التراث الشيعي
أ.م.د . خليل خلف بشـــير ١٠

إشكاليات التفسير الروائي (دراسة نقدية)
م.م ساجد صباح العسكري ١٨

التوجيه الدلالي لآية تعدد الزوجات في القرآن
أ.م.د . عادل عباس النصراوي ٢٤

آمن الرسول

الترغيب والترهيب الحسّي في يوم القيامة
محسن عبد العظيم هادي الخاقاني ٣٠

ملف العدد (التوحـــيد)

خطبة أمير المؤمنين عليه السلام ٣٦

هل لهذا الكون من خالق ؟
احمد المالكي ٣٨

خلق الإنسان دليلاً على التوحيد
د. علي مجيد البديري ٤٤

معرفة الخالق وتوحيده في نهج البلاغة
أ.م.د . حسن حميد الفياض ٥٠

قراءة نقدية في كتاب التصميم العظيم
سكرتير التحرير ٥٤

توحيد المفضل ٦٠

إضاءات السيرة

واختلفوا !! في تاريخ وفاة سيد الجميع صلى الله عليه وآله
طالب علي الشرقي ٦٦

مع الفقيه

أجوبة استفتاءات مطابقة لفتاوى
سماحة السيد الحكيم (مدّ ظله) ٧٢

في النفس والمجتمع

الإنفاق أساس العدل الاجتماعي
خضير عباس محمد ٧٦

التسامح والتعايش السلمي في نصوص القرآن
أ.د فيصل علي البصام ٨٢

قراءات

الإعجاز القرآني عند السيد المرتضى
أ.د . الشيخ صاحب نصار ٩٦

للفضيلة نجومها

عين علماء الشام أبو الصلاح الحلبي ت ٤٤٧ هـ
حامد شاكر منيب ١٠٢

طروحات عامة

السلطان جلال الدين محمد أكبر
محمد علي جعفر ١٠٨

واحة الأدب

السُلَم الحِجاجيّ في توقيعات الإمام المهدي (عج)
أ.د . عبد الاله العرداوي ١٦

المجاز قنطرة الحقيقة (حكاية رمزية)
كمال السيد ١٢٢

حــكايــة مستــبصر ٨٨

في الــذاكــرة ٩٠

وقــفة مع الذكــرى ٩٢

كلمة العدد

عَودٌ على بـدء...

كنا قد أبدينا الرأي في افتتاحية العدد السابق وعقب إعلان النصر الذي حققه العراقيون، محطمين أحلام الغزاة المردة على صخرة الإرادة والعزيمة والتضحية، وسط ذهول العالم، ببركات وجود المرجعية الرشيدة في حياة الأمة وتلاحمها معها وطاعتها لها.. وتوقعنا ردة فعل للأعداء على هزيمتهم النكراء الّتي مُنيوا بها، تكون كبيرة بحجم الانتصارات التي سجلها أبطال العراق الغيارى، ولا تقلّ عن محاولة النيل من هيبة المرجعية الحكيمة وعزلها عن جماهيرها المؤمنة، باستخدام أساليبهم الخبيثة وأسلحتهم الشيطانية.

وها هي توقعاتنا قد صدقت، وأخذت أفاعيهم الرابضة في الجحور تطلّ برؤوسها لتنفث سمومها في المجتمع، متجلببة بجلباب الدين والإصلاح، منتحلة صفة العلم والفقاهة، لتبري للإفتاء وتوجيه الرأي العام كما يحلو لها في حرمة هذا ووجوب ذاك، وبما ينسجم مع تطلعاتها في إشاعة الفوضى في المجتمع، وترتيب الأولويات المناسبة لتمرير مصالحها، وتبنّي المواقف الكفيلة بتأجيج الصراع بين أبناء الوطن الواحد لإضعاف الأطراف المؤثرة والفاعلة فيه، لتخلو الساحة للتائقين إلى العودة لها من جحور تحت الأرض كانت ملاذهم الوحيد، حين كان الأباة الأبطال يخبطونها بأقدامهم ويشنّفون الآذان بوقعها الهادر الذي تنضبط على إيقاعه "هوسات" أهل الغيرة والحَميَّة وأناشيدهم البطوليَّة.

إنها أصوات نشاز، ووجوه لا تخفى ملامحها على فراسة المؤمنين من أبناء الأمة، مهما اتخذت من أقنعة لإخفاء قبحها وبشاعتها، فهم جند للشيطان وأولياء له. لا يخلو منهم عصر ولا زمان. يتعبدون بتنفيذ أجنداته بحرَفيّة وإتقان، ديدنهم الانتقائية في المواقف من الأحداث المصيرية منها التي تحتاج بذل الجهد والعمل وتقديم أدنى التضحيات الممكنة، تراهم يلتزمون الصمت وكأن على رؤوسهم الطير، أما في الحالات التي يلوح لهم في الأفق تحقيق مصالحهم الخاصة وقضاء حوائجهم الشخصية، فلا يتوانون عن التدافع بالمناكب للصعود فوق أعناق البؤساء وتصدُّر المشهد الإعلامي، ثم التبجّح بالكلام الخاوي المجرد عن المضامين الواقعيّة، والبعيد عن الحلول العملية للمعضلات الاجتماعية والسياسية المستعصية..

الكلام الذي يرفع فحسب من منسوب المزايدات السياسية،

ووتيرة المهاترات التافهة، برأسمال قوامه اللعبُ على التناقضات والكذبُ والنفاق، الذي يعقّد المشهد أكثر فأكثر، ليتاح عبر اختلاق الفوضى وإحداث القلاقل بين النَاس إعادةُ التاريخ إلَى الوراء، وتسليمُ زمام الأمور إلى قوى الشر والباطل تحت مسميات جديدة.

وما أسهل استغلال الظروف السيئة التي يمر بها البلد، ودغدغة مشاعر الطبقات الفقيرة، والتظاهر بالتعاطف معها والاهتمام بها والتباكي عليها، ما أسهلَه من سبيل لبث الأفكار المسمومة في أوساطهمً بين معسول الكلام، وما أخصبَه من درب لزرع الفتن في أرض قَد أجدبتّها الوعودُ الكاذبةُ خلال العهود المتعاقبة، فبات الناصبون خيامهم في قارعته ينسُجون آمالهم وأحلامهم من خيوط الأوهام التي لم يدَع لهم الإحباطُ من خِيار إلا تصديقها، وأكثرهم يعلمون عِلم اليقين أنهم لا يتبعون إلّا ظنّاً وأنَّ الظنَّ لا يغني من الحق شيئًا.

الحربُ على المؤسسة الدينية، والطعنُ فيها وفي مواقفها السديدة الرشيدة المشرفة، بات هو العنوان المشترك الذي يجمع هؤلاء الموتورين على تعدُّد مشاربهم وتوجهاتهم ومذاهبهم، ويوحِّدُ جهودَهم غيرَ المبارَكة في التهديف نحو مكانتها المرموقة في ضمائر العراقيين والمسلمين.

وليس لنا أمام هذه الهجمة الشرسة التي تتعرض لها مرجعيتنا الدينية إلّا إعادة التذكير بضرورة تفعيل دور المثقفين والحكماء والخطباء والإعلاميين وسائر المفكرين وقادة الرأي في المجتمع لفضح هؤلاء وكشف المهام الخبيثة المكلَّفين بتنفيذها بين ظهرانينا، وتفنيد آرائهم ومقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، بما يتوفر لهم من منصات إعلامية صارت في متناول الجميع.

كما نأمل من الجماهير المؤمنة المزيد من التكاتف والتراصّ والتمسك بخط المرجعية الرشيدة التي حافظت على العراقيين وهيبتهم وشرفهم وبلادهم في جميع الظروف التي عصفت بالبلاد على مر الأجيال، وكانت ولمّا تزل صمام الأمان لهم جميعًا، مضحية بالغالي والنفيس لصون بيضة الإسلام والحفاظ على الدين دون مقابل، وعدم السماح لكائن من كان النيل من هيبة المرجعية.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآل مُحَمَّد وَأَرِنا الحَقَّ حَقّا فَنتبعَهُ وَالباطلَ باطلاً فَنجْتَنبَهُ، وَلا تَجْعَلْهُ عَلَينا مُتَشابِها فَنتَّبعَ هَوانا بغَيْر هُدىً منْكَ وَاجْعَلْ هَوانَا تَبَعاً لَطاعَتكَ وَخُذْ رضا نَفْسكَ منْ أنفُسنا، وَاهْدنا لَما اخْتُلفَ فيهِ منَ الحَقِّ بإذْنكَ إنَّكَ تَهْدي مَنْ تَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيم.

والسَّلامُ عَلَيْكُمْ ورَحْمَةُ اللّهِ وبَرَكاتُه.

التفسير المغيّب
في التراث الشيعي

أ.م.د. خليل خلف بشير
كلية الآداب/جامعة البصرة

ينابيع

لعل الدليل على أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان قد كتب تفسيرًا وشرحًا للقرآن الكريم هو احتجاجه على الزنديق من أنه أتى (بالكتاب كُمُلًا مشتملًا على التأويل والتنزيل، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، لم يسقط منه حرف ألف ولا لام...)[1]، وكذا احتجاجه على جماعة من المهاجرين والأنصار بالقول: (يا طلحة إن كل آية أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله عندي بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي، وتأويل كل آية أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله وكل حلال، أو حرام، أو حدٍّ أو حُكم، أو شيءٍ تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة، فهو عندي مكتوبٌ بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي، حتى أرش الخدش ...)[2].

وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة أربعة لا خامس لهم وهم: علي بن أبي طالب عليه السلام – وكان أعلمهم ورئيسهم -، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عباس – وكان أصغرهم وأوسع باعاً في التفسير –[3].

أدلة وجود التفسير

ومن الأدلة أيضاً على تأليفه التفسير الذي غُيّب، هو أن أول عمل قام به بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله – وهو ما أوصاه به صلى الله عليه وآله – هو جمعه القرآن الكريم وترتيبه له بحسب النزول فضلاً عن معلومات فريدة عن النزول والتفسير والتأويل الذي تحتاجه الأمة الإسلامية، وكان قد عرضه على الخليفة الأول فقال: لا حاجة لنا به فأشار الإمام عليه السلام إلى أنهم سوف لا يحصلون عليه بعد ذلك اليوم[4]، كما يتضح من الرواية الآتية: (لما رأى علي عليه السلام غدرهم وقلة وفائهم لزم بيته وأقبل على القرآن يؤلفه ويجمعه، فلم يخرج حتى جمعه كله فكتبه على تنزيله والناسخ والمنسوخ، فبعث إليه أبو

بكر أن اخرج فبايع، فبعث إليه إني مشغول فقد آليتُ بيمين أن لا أرتدي برداء إلا للصلوات حتى أؤلف القرآن وأجمعه، فجمعه في ثوب وختمه ثم خرج إلى الناس وهم مجتمعون مع أبي بكر في مسجد رسول الله ﷺ فنادى عليه السلام بأعلى صوته: أيها الناس إني لم أزل منذ قبض رسول الله ﷺ مشغولاً بغسله ثم بالقرآن، فلم ينزل الله على نبيه آية من القرآن إلا وقد جمعتها كلها في هذا الثواب، وليست منه آية إلا وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها. فقالوا: لا حاجة لنا به عندنا مثله)[٥].

وترد في كتب التاريخ والسيرة عبارة (مصحف علي) و(مصحف أُبي بن كعب) و(مصحف ابن مسعود)[٦]، وقد توهَّم بعض الدارسين أنّ ذلك دليل على تحريف القرآن، وأنّ مصحف علي عليه السلام فيه آيات غير الآيات الموجودة في مصاحف الآخرين. والصحيح أنّ مصحف علي عليه السلام هو نفس المصحف الذي جمعه ابن كعب وابن مسعود وغيرهم، ولكن الاختلاف هو في التأويل والتفسير، وقد ذكر السيد أبو القاسم الخوئي قدس سره مجموعة من الروايات حول المصحف الذي جمعه أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يختلف عن بقية المصاحف فالزيادات الموجودة عليه هي شروح للنص القرآني، وقد عقّب السيد الخوئي قدس سره هذه الروايات بالقول: (إن وجود مصحف لأمير المؤمنين عليه السلام يغاير القرآن الموجود في ترتيب السور مما لا ينبغي الشك فيه، وتسالم العلماء الأعلام على وجوده أغنانا عن التكلف لإثباته، كما أن اشتمال قرآنه عليه السلام على زيادات ليست في القرآن الموجود، وإن كان صحيحا إلا أنه لا دلالة في ذلك على أن هذه الزيادات كانت من القرآن، وقد أسقطت منه بالتحريف، بل الصحيح أن تلك الزيادات كانت تفسيرًا بعنوان التأويل، وما يؤول إليه الكلام، أو بعنوان التنزيل من الله شرحًا للمراد)[٧]، وفي الرواية الآتية: (وقد كان بالمشهد الشريف الغروي مصحف في ثلاث مجلدات بخط أمير المؤمنين علي عليه السلام احترق حين احترق المشهد سنة خمس وخمسين وسبعمائة، يقال إنه كان في آخره: وكتب علي بن أبي طالب)[٨].

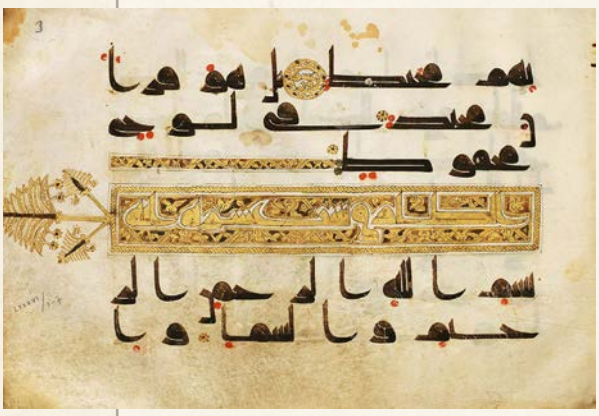

وكان من تغييبهم لعلمه بالتفسير موقف الخلفاء الثلاثة الموحد من منعهم إياه من تفسير القرآن بحرقهم للمصاحف المفسّرة ففي هذه المصاحف حواشٍ تفسيرية للقرآن الكريم كان الصحابة الأوائل قد دونوها من أقوال الرسول الأكرم ﷺ فمثلاً في تفسير آية الولاية وإكمال الدين وآية التبليغ، وقوله: (**وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**) (الأحزاب:٢٥)

بيّن أنها نزلت في علي عليه السلام، وقد ذكر ذلك في مصحف عبد الله بن مسعود، ومثل ذلك في بقية المصاحف، ولما كان وجود المصاحف في متناول أيدي المسلمين وفي طياتها هذا التفسير الذي يفضح المغتصبين لتراث الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فقد أمر أبو بكر وعمر وعثمان بحرقها حين تصل إليه الخلافة فهذا النوع من التفسير حرّموه على المحدّثين؛ لأنه يسحب البساط من تحت أقدام المنافقين الذين اغتالوا رسول الله صلى الله عليه وآله وابنته فاطمة الزهراء عليها السلام مما هيأ ذلك لقتل أهل البيت وتصفيتهم وإبعادهم من الحكم فضلاً عن حرق السنة النبوية، لإبعادها عن القضايا التراثية والسياسية بقولهم (حسبنا كتاب الله)[٩].

لكن علياً عليه السلام كان حريصاً - برغم ذلك كله – على نشر الحديث والتفسير بما سنحت له الفرصة في زمن الخلفاء الثلاثة، وفي خلافته، وكان هذا التفسير موضع اعتزاز الأئمة الطاهرين مما حمل بعض الحاقدين على الشيعة على الزعم بأنّ عندهم مصحفاً غير المصحف المعهود، واتخذوا ذلك وسيلة للطعن عليهم، والصحيح ليس كذلك؛ لأن مصحف الإمام مصحف حافل بتفسيره وأسباب نزوله وغير ذلك[١٠]، وكان ابن الكواء كثير السؤال فسأله عن معنى آية: (**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا**) (الذاريات:١) التي كان الإمام يحدّث حينها فأجابه: الريح. قال: (**فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا**)؟ قال: السحاب. قال: (**فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا**)؟ قال: السفن. قال: (**فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا**)؟ قال: الملائكة. قال فمن الذين بدلوا نعمة الله كفراً؟ قال: منافقو قريش[١١].

وكان عمر بن الخطاب يهدد بدرته من يسأل عن معنى آية من القرآن، ويدل عليه سؤال أحد المسلمين عمر عن معنى: (**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**) فيقول، وهو على المنبر: (كل هذا عرفناه فما الأب؟)[١٢].

وقد انبرى الباحث عبد الله علي أحمد الدقاق لإثبات هذا المصحف متوصلاً إلى أنه القرآن الذي قام بجمعه بوصية من الرسول صلى الله عليه وآله فقد باشر بالجمع بعد الوفاة بثلاثة أيام واستغرق فيه العدد نفسه بعد عرضه لروايات موثقة من الفريقين أحصاها بـ (٢٤-٣١) رواية، ويشير إلى أن الإمام عرضه على الخلفاء لكنهم لم يؤيدوه فاحتفظ به وسلّمه إلى الإمام الحسن عليه السلام، وهكذا ظل ينتقل هذا المصحف من إمام إلى إمام حتى وصل إلى الإمام المهدي (عج) الذي عند خروجه سيظهر بهذا المصحف العلوي متطرقاً إلى أسباب إقدام الإمام على جمع القرآن بمصحف واحد، من ذلك: تنفيذ وصية النبي صلى الله عليه وآله مشيراً إلى أن الزيادات الموجودة في المصحف إنما كانت من قبيل التفسير والتوضيح للقرآن الكريم، أما مدة كتابة المصحف فقد اختلف فيها فقيل ثلاثة أيام، وقيل سبعة أيام، وقيل ستة أشهر، وقد رجّح الباحث الثلاثة أيام بالأدلة القوية المعتبرة[١٣].

من أسباب تغييب التفسير

يعد تفسير أمير المؤمنين عليه السلام للقرآن الكريم من التفاسير التي غُيّبتْ، وأُسدل عليها الستار؛ لأسباب

كثيرة منها: تغييب الهوية العلمية العلوية التي يتمتع بها أمير المؤمنين عليه السلام فهو باب مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأعلم الخلائق بعده بالقرآن وغيره، فهو الرائد الأول لكل علم بل هو موسوعة معارف متنوعة فلم ينل هذه المنزلة السامية في التفسير وفي غيره من العلوم بانزوائه في دهاليز مكة أو المدينة، واعتزاله الناس بالانكباب على مطالعة القرآن والتبحر في محتواه، وإنما كان في قلب الأحداث التي رسمت معالم الأمة الإسلامية في عهدها الأول فلم يغفل عن القرآن، وهو يقاوم شظف العيش وقسوة الظروف، والقرآن في صدره وهو يحمل أعداء الدين بسيفه البتّار، والقرآن أمام عينيه وهو يحكم البلاد إذ كان ملازماً للقرآن في الأحوال والظروف كلها حتى تجلى القرآن في حركاته وسكناته، ولم يجد الناس بداً من الرجوع إليه في معرفة معاني الآيات وتفسيرها، وقد شهد رجال التفسير عبر التاريخ كثرة ما روي عنه في تفسير القرآن، وشهدوا أيضاً بتفوقه في هذا الخصوص، وأنه إمامهم في التفسير[١٤].

وقد بادر أئمة أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم، وعلماؤنا بتفسير القرآن الكريم مثل تفسير الإمام الباقر عليه السلام، وتفسير أبي حمزة الثمالي، وتفسير التبيان للشيخ الطوسي، وتفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي، وغيرهم ممن عُنوا بالبحث عن أسرار القرآن، وكشف كنوزه، وبيان أحكامه، والعمل بها في مجالي الفهم والتطبيق[١٥].

وقد كان الدور الذي قام به أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن الكريم دور تربية وتعليم وإرشاد إلى معالم التفسير فقد كانت تفاسيرهم المأثورة عنهم تفاسير نموذجية كانوا قد عرضوها على الأمة والعلماء ليتعرفوا إلى أساليب التفسير عنهم، وهذا يدل على حرصهم الشديد على تعليم الأمة كيفية تفسير القرآن الكريم، وإيقافهم على نكت وطرف من هذا الكلام البارع فهم ورثة الكتاب الإلهي الخالد، وحملته إلى الناس بأمانة صادقة وأداء كريم[١٦].

من تفسيره سورة الفاتحة

يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام مقولة مشهورة في تفسيره سورة الفاتحة، وهي قوله: (لو شئت لأوقرتُ سبعين بعيرًا في تفسير فاتحة الكتاب، ولما وجد المفسرون قوله لا يأخذون إلّا به)[١٧]،

ويبدو أنه فسّر فاتحة الكتاب تفسيرًا موجزًا؛ لأنّ لكل مقام مقالًا فالمقام لا يسمح في الإطالة، وذلك في كتابه إلى قيصر الروم جوابًا عن مسائله في أنّ (عمر لمّا جلس في الخلافة جرى بين رجل من أصحابه يقال له الحارث بن

سنان الأزدي وبين رجل من الأنصار كلام ومنازعة فلم ينتصف له عمر فلحق الحارث بن سنان بقيصر وارتد عن الإسلام ونسي القرآن كله إلّا قول الله عز وجل (**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) (آل عمران: ٨٥)، فسمع قيصر هذا الكلام قال سأكتب إلى ملك العرب بمسائل فإن أخبرني بتفسيرها أطلقت من عندي من الأسارى، فعرضتُ عليهم النصرانية فمن قبل منهم استعبدته، ومن لم يقبل قتلته، وكتب إلى عمر بن الخطاب بمسائل أحدها سؤاله عن تفسير الفاتحة ...، ولما وردت هذه المسائل على عمر لم يعرف تفسيرها ففزع في ذلك إلى الإمام علي عليه السلام فكتب إلى قيصر: من علي بن أبي طالب صهر محمد ووارث علمه وأقرب الخلق إليه ووزيره ومن حقت له الولاية وأمر الخلق من أعدائه بالبراءة قرة عين رسول الله وزوج ابنته وأبي ولده، أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلّا هو عالم الخفيات، ومنزل البركات، من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له، ورد كتابك وأقرأنيه عمر بن الخطاب، فأما سؤالك عن (اسم الله) تعالى فإنه اسم فيه شفاء من كل داء، وعون عن كل دواء، وأما (الرَّحْمَن) فهو عون لكل من آمن به، وهو اسم لم يسمّ به غير الله الرحمن تبارك وتعالى، وأما (الرَّحِيم) فرحم من عصى وتاب وآمن وعمل صالحًا، وأما قوله: (**الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**) فذلك ثناء منّا على ربنا تبارك وتعالى بما أنعم علينا، وأما قوله: (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) فإنه يملك نواصي الخلق يوم القيمة، وكل من كان في الدنيا شاكًا أو جبّارًا أدخله النار، ولا يمتنع من عذاب الله عز وجل شاكٌ ولا جبّار، وكل من كان في الدنيا طائعًا مُديمًا مُحافظًا إياه أدخله الجنّة برحمته، وأما قوله: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**)، فإنّا نستعين بالله عز وجل من ... الشيطان الرجيم لا يضلنا كما أضلكم، وأما قوله: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، فذلك الطريق الواضح، من عمل في الدنيا عملًا صالحًا فإنه يسلك على الصراط إلى الجنة، وأما قوله: (**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**)، بتلك النعمة التي أنعمها الله عز وجل على من كان قبلنا من النبيين والصديقين فنسأل الله ربنا أن ينعم علينا كما أنعم عليهم،

وأما قوله: (**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**)، فأولئك اليهود بَدّلوا نعمة الله كفرًا فغضب عليهم فجعل منهم القردة والخنازير، فنسأل ربنا تعالى أن لا يغضب علينا كما غضب عليهم، وأما قوله: (**وَلَا الضَّالِّينَ**)، فأنت وأمثاله يا عابد الصليب الخبيث ضللتم من بعد عيسى بن مريم، فنسأل الله ربنا أن لا يضلنا كما ضللتم ...)[١٨].

وثمة تفسير آخر للحمد أوردته بعض المصادر، إذ يروون أن رجلاً جاء إلى الإمام الرضا عليه السلام فقال له: يا ابن رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل: (**الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) ما تفسيره؟ فقال عليه السلام: لقد حدثني أبي عن جدي عن الباقر عن زين العابدين عن أبيه عليهم السلام أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرني عن قول الله عز وجل (**الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) ما تفسيره؟ فقال: الحمد لله هو أن عرّف عباده بعض نعمه عليهم جملاً، إذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل، لأنها أكثر من أن تحصى أو تُعرف، فقال لهم: قولوا الحمد لله على ما أنعم به علينا ربُّ العالمين، وهم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات، وأما الحيوانات فهو يقلبها في قدرته ويغذوها من رزقه ويحوطها بكنفه ويدبر كلًا منها بمصلحته، وأمّا الجمادات فهو يمسكها بقدرته، ويمسك المتصل منها أن يتهافت، ويمسك المتهافت منها أن يتلاصق، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، ويمسك الأرض أن تنخسف إلّا بأمره، إنه بعباده لرؤوف رحيم.

وقال عليه السلام: ربُّ العالمين مالكهم وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، فالرزق مقسوم...)[١٩]، وفسّر ربّ العالمين بقوله (يعني مالك الجماعات من كل مخلوق وخالقهم وسائق أرزاقهم إليهم من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، يقلّب الحيوانات في قدرته ويغذوها من رزقه، ويحوطها بكنفه ويدبر كلًا منها بمصلحته، ويمسك الجمادات بقدرته، ويمسك ما اتصل منا عن التهافت والمتهافت عن التلاصق والسماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، والأرض أن تنخسف إلا بأمره)[٢٠].

وفي قوله تعالى: (**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**) قال: (أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ما مضى من أيامنا، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا، والصراط المستقيم هو صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأما الطريق المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل، وأما الطريق الآخرة طريق المؤمنين إلى الجنة الذي هو مستقيم لا يعدلون عن الجنة إلى النار. ولا إلى غير النار سوى الجنة)[٢١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: (**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**...)، أي قولوا اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك لا بالمال والصحة، فإنهم قد يكونون كفارًا أو فُسّاقًا. وقال: هم الذين قال الله تعالى: (**وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ**

اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (النساء: ٦٩)[٢٢].

وهنا يكون الإمام عليه السلام قد فسّر القرآن بالقرآن، وهو أول من نهج هذا النمط من التفسير بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

---

١) بحار الأنوار / المجلسي ١٢٦/٩٠.

٢) مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) / الميرجهاني ٣٤٢/١.

٣) ينظر: التمهيد في علوم القرآن/ العلامة محمد هادي معرفة ١٨٧/٩.

٤) ينظر: أعلام الهداية/ لجنة التأليف٢٢٥/٢.

٥) الاحتجاج /الطبرسي ١٠٧/١، وجامع أحاديث الشيعة /٤٣/١٣.

٦) ينظر مثلاً: بحار الأنوار ١٩/٢٤، والاحتجاج ٢٢٣/١.

٧) البيان في تفسير القرآن/السيد الخوئي ٢٢٣.

٨) عمدة الطالب/ابن عنبة٢١، وقد كتب د.عبد الله السوداني بحثاً يثبت فيه أن ثمة مصاحف لأمير المؤمنين عليه السلام في بحثه الموسوم (مصاحف الإمام علي عليه السلام) المنشور في مجلة المصباح ع ٢، صيف ٢٠١٠-١٤٣١هـ) ص ٢٠٧-٢١٩.

٩) ينظر: الإمام علي بن أبي طالب هو الإمام حقاً /مهدي الشيخ صالح الأسدي ٣٩٣- ٣٩٤.

١٠) موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام/ الشيخ باقر شريف القرشي ٧/٣-٨.

١١) ينظر: المستدرك/ الحاكم النيسابوري ٤٦٧/٢.

١٢) ينظر: بحار الأنوار ٦٩٣/٣٠، والغدير/ الأميني ٩٩/٦.

١٣) ينظر: حقيقة مصحف الإمام علي عند الشيعة والسنة /عبد الله علي أحمد الدقاق ٣٥٣-٣٥٥.

١٤) الإمام علي القرآن الناطق/ طالب خان١١٣-١١٤.

١٥) ينظر: تاريخ الأدب الإسلامي/ د. عباس الترجمان ٤٠٢-٤٠٣.

١٦) ينظر: التمهيد في علوم القرآن ٤٣٧/٩-٤٣٨.

١٧) المناقب/ابن شهراشوب/ج١ص٣٢٢.

١٨) إرشاد القلوب/الديلمي/ج٢ص٣٦٦.

١٩) عيون أخبار الرضا/الشيخ الصدوق/ ج١ص ٢٥٥.

٢٠) علل الشرايع/الشيخ الصدوق/ج٢ص٤١٧.

٢١) معاني الأخبار/الشيخ الصدوق/ص٣٣.

٢٢) تفسير الصافي/الفيض الكاشاني/ج١ص٩.

نوادر في البيان والبلاغة والفصاحة

حكي أن القاضي الفاضل له خصيص به، وكان صديقه هذا قريباً من الحاكم صلاح الدين الأيوبي، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الحاكم أمر فغضب عليه وهَمَّ بقتله، فتسحَّب إلى بلاد التتر، وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم، وصار يُعَرِّف التتر كيف يتوصل إلى الحاكم صلاح الدين بما يؤذيه، فلما بلغ الحاكم ذلك نفر منه، وقال للفاضل: اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أنني أرضى عليه واستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر، فإذا حضر قتلته واسترحت منه. فتحير الفاضل بين الاثنين، صديقه يعزُّ عليه والحاكم لا يمكنه مخالفته، فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعده بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمد لله والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب: إنَّ شاء الله تعالى، كما جرت به العادة في الكتب، فشدَّد إنَّ، ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه، فقرأه في غاية الكمال وما فهم إنَّ، وكان قصد الفاضل: (**إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ**)، فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً، فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء تعالى مدَّ النون وجعل في آخرها ألفاً، وأراد بذلك: (إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا)، فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة، ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك .

(المستطرف في كل فن مستظرف/ الأبشيهي/ ج١ ص٨٩)

إشكاليات التفسير الروائي
دراسة نقدية

م.م ساجد صباح العسكري
ذي قار- العراق

ينابيع اعتمد كثير من المفسرين على الروايات المنقولة في تفاسيرهم لآيات القرآن الكريم، وهذا الاتجاه لا يخلو من إشكالات كثيرة تتعلق بسند الرواية ومتنها وبالتالي مدى حجيتها، وخصوصًا حين يتعلق الأمر بالأحكام الشرعية والحلال والحرام، فكان لابد من الوقوف على هذا الاتجاه وما يكتنفه من إشكالات.

حجية التفسير الروائي وموقف الاتجاهات التفسيرية منه:

أولاً: حجية التفسير الروائي:

التفسير الروائي عن المعصوم حجة بلا شك والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)، وهذا تصريح بحجية بيان النبي ﷺ للقرآن الكريم.

٢- حديث الثقلين: روى الكليني بسنده عن الرسول ﷺ أنه قال: (إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير قد عهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)[١].

وهو حديثٌ متواترٌ[٢]، يُثبت حجية أقوال المعصومين عليهم السلام، بدلالة التلازم بين العترة والقرآن وإن التفريق بينهما لا يعصم من الضلال.

٣- إن النبي محمد ﷺ والأئمة عليهم السلام، قاموا بتفسير القرآن قولاً وعملاً وهذه السيرة حُجة، لأن قول المعصوم وفعله وتقريره حجة، ومن هنا نشأت إشكاليتان في حجية التفسير الروائي، هما:

الأولى: هل يمكن أن نفسر القرآن بخبر الواحد ؟

الثانية: هل أقوال الصحابة والتابعين حجة كما هي أقوال المعصومين عليهم السلام ؟

وللجواب على الإشكال الأول، نقول: اختلف العلماء في حجية هذا المنهج، فالبعض جعله منحصراً بالروايات القطعية كالطوسي والطباطبائي[٣]، والبعض وسع

الدائرة ليشمل الأخبار الضنية كخبر الواحد كالزركشي والخوئي[٤].

أما الإشكال الثاني فيجيب عنه السيد الطباطبائي عند التفسير للآية ٤٤ من سورة النحل بقوله: (في الآية دلالة على حجية قول النبي ﷺ في بيان الآيات القرآنية، وأما ما ذكره بعضهم أن ذلك في غير النص والظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع إلى اسرار كلام الله وما فيه من التأويل فمما لا ينبغي أن يصغى إليه.

هذا في نفس بيانه ﷺ ويلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر وغيره، وأما سائر الأمة من الصحابة أو التابعين أو العلماء فلا حجية لبيانهم، لعدم شمول الآية وعدم نص معتمد عليه يعطى حجية بيانهم على الإطلاق)[٥].

نعم يمكن الأخذ بقول الصحابي والتابعي في المسائل اللغوية مع افتراض اطلاعهم على لغة العرب، وفي مسائل أسباب النزول إذا شهد الصحابي الحادثة وكان ثقة، أما أقوالهم الشخصية الاجتهادية في التفسير فلا يختلف حالهم عن حال بقية المفسرين[٦].

ثانيًا: موقف الاتجاهات التفسيرية من التفسير بالرواية:

عند البحث عن موقف المفسرين من التعامل مع الرواية نجد أن هناك أربعة اتجاهات هي:

١- الاتجاه الرافض للاعتماد على الرواية في التفسير، ويرى استقلال القرآن وعدم احتياجه إلى الرواية، لأنّه نزل بلسان عربي مبين[٧]، وهذا الاتجاه يتعارض مع قوله تعالى: (**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**)، ويتعارض مع حديث الثقلين الذي يفترض أن اللجوء إلى أحدهما دون الآخر لا يعصم من الضلال.

٢- الاتجاه الرافض للتفسير بغير الرواية، ومن هؤلاء الإخبارية، فقالوا بعدم جواز تفسير القران إلّا في ضوء الروايات[٨]، محتجين بقول: (إنما يعرف القرآن من خوطب به)[٩]، فغير المعصوم عاجز عن الإحاطة بتفسير القرآن.

ويرد عليه:

أ- أن هذا الرأي يتعارض مع حديث الثقلين.

ب- إن التفسير الروائي لا يمكن إن يكون منهجًا مستقلاً في التفسير، لكثرة الإشكاليات على الروايات التفسيرية، ولعدم وجود روايات تفسير كل آيات القرآن.

ج- الإحاطة بتمام المراد الإلهي وإن كانت منحصرة في المعصوم إلّا أن ذلك لا يمنع تفسير القرآن ومقاربة مراد المولى، وإلّا لكانت الدعوة للتدبر والتفكر في آيات القرآن لغوًا حاشاه تعالى عن ذلك

علوًا كبيرًا.

٣-الاتجاه المعتدل: الذي يجعل من الرواية وسيلة وقرينة لتفسير آيات القرآن الكريم[١٠].

إشكاليات التفسير الروائي:

الروايات التفسيرية كغيرها من الروايات فيها من الإشكاليات السندية والمتنية الكثير، ومن أهم تلك الإشكاليات:

أولًا- ضعف السند:

المشكلة الأولى التي تواجه التفسير الروائي هي ضعف سند الأحاديث المفسرة للقرآن الكريم، والضعف قد ينشأ من حذف السند أساسًا أو بسبب وجود مجاهيل في السند أو وجود ضعاف أو وضاعين[١١].

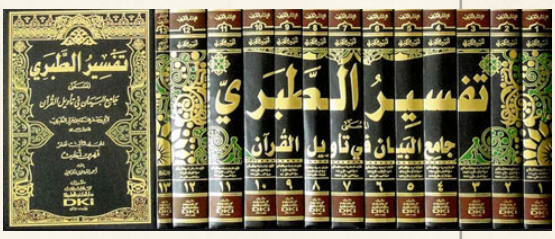

والأكثر من ذلك أن هناك مصادر تفسيرية لم تثبت صحة انتسابها إلى أصحابها، كالتفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام، والذي هو من إملاء أبي يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، وأبي الحسن علي بن محمد بن سيار، ورواه عنهما أبو الحسن محمد بن القاسم الخطيب المعروف بالمفسر الأسترآبادي، وهؤلاء الثلاثة مجاهيل[١٢].

وتفسير القمي الذي ينسب إلى علي بن إبراهيم القمي، فإن بعضهم يرى انتسابه إلى ابن أبي الجارود، وبعضهم الآخر يرى أن بعضه للقمي وبعضه لغيره[١٣].

يقول الشيخ محمد باقر الإيرواني: (إن القمي وإن كان له كتاب باسم التفسير ولا يمكن التشكيك في ذلك باعتبار أن النجاشي والطوسي قد نصا على وجود التفسير المذكور وذكرا إليه طريقًا صحيحًا، ولكننا نشكك في كون التفسير المذكور المتداول اليوم هو نفس تفسير القمي، ونحتمل عدم كونه للقمي رأسًا أو لا أقل بعضه للقمي والبعض الآخر قد دس فيه)[١٤].

كما أن بعض أصحاب التفاسير الروائية اتهموا بالوضع أو التدليس أو الجهالة ونحو ذلك كالضحاك بن مزاحم، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، ومحمد بن السائب الكلبي، ومقاتل بن سليمان، ومحمد بن مروان السدي الصغير، وفرات الكوفي وابن يسّار، وغيرهم[١٥].

ثانيا - كثرة الأحاديث الموضوعة:

من الإشكاليات التي تلازم الحديث الشريف في مختلف المجالات وفي مجال التفسير خصوصًا، هي إشكاليات الوضع والدس، وكانت بداية الوضع في صدر الإسلام، يقول الذهبي: (مبدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين من الهجرة)[١٦].

وقد ذكر العلماء عدة أسباب لوضع الأحاديث في كتب التفسير من أهمها:

١- إفساد الدين وإيقاع الخلاف والافتراق بين المسلمين:

فقد نقل عن حماد بن زياد قوله: (وضعت الزنادقة على رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة عشر ألف حديث)[١٧].

٢- الوضع لنصرة مذهب معين:

كثير من المذاهب المبتدعة وأصحاب

الرأي تضع أحاديث لنصرة مذهبها، خصوصًا وأن الآيات المتشابهة فيها من القابلية للتأويل والتوجيه بحسب ما يريد الذين في قلوبهم زيغ.

فقد استدل المجسمة وأصحاب الظاهر في تفسيرهم لقوله: (**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**) (القلم: ٤٢)، بالحديث الذي أخرجه البخاري عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: (يوم يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا)[١٨]، مع أن الساق كناية عن الكرب والشدة[١٩].

٣- الترغيب في قراءة القرآن:

يبدو أن أكثر روايات فضائل السور من الروايات الموضوعة، وضعت لترغيب الناس بقراءة القرآن، فقد روى ابن الجوزي بسنده عن أبي عمار المروزي قال: (قيل لأبي عصمة نوح ابن أبي مريم: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة. وقد حكى مؤمل بن إسماعيل أن رجلًا وضع في فضائل القرآن حديثًا طويلًا)[٢٠].

ثالثًا ـ الإسرائيليات في التفسير:

الإسرائيليات في اصطلاح أهل التفسير: كل ما تطرق للتفسير من أساطير قديمة، منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما[٢١].

بل توسع بعضهم في تعريف الإسرائيليات فجعل منها كل ما هو مدسوس في التفسير من قبل أعداء الإسلام[٢٢].

وهي نوع وضع على الرسول ﷺ،

وإنما أطلق علماء التفسير والحديث لفظ الإسرائيليات على كل ذلك من باب التغليب للون اليهودي على غيره؛ لأن غالب ما يروى من هذه الخرافات والأباطيل يرجع إلى مصدر يهودي[٢٣].

وقد تنبه النبي محمد ﷺ إلى خطر تلك الروايات فنهى عن الأخذ بها، فقد أخرج أحمد في مسنده: (عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: أمتهوّكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه السلام كان حيًا ما وسعه الا أن يتبعني)[٢٤].

قال الذهبي: (بل لا أكون مبالغًا ولا متجاوزًا حد الصدق إن قلت أن كتب التفسير كلها انزلق مؤلفوها إلى ذكر بعض الإسرائيليات، وإن كان يتفاوت قلة وكثرة وتعقيبًا عليها وسكوتًا عنها)[٢٥].

وقال العلامة الطباطبائي: (إن انسراب الإسرائيليات وما يلحق بها من

الموضوعات والمدسوسات بين رواياتنا لا سبيل إلى إنكاره ولا حجية في خبر لا يؤمن فيه الدس والوضع)[٢٦].

١) الكافي، الكليني :٢ /٤١٥.
٢) ينظر: حديث الثقلين للسيد علي الحسيني الميلاني:٢٠.
٣) ينظر: التبيان للطوسي: ٦/١، ينظر: الميزان :٢٦٢/١٢ .
٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٥٦، ينظر: البيان/الخوئي: ٣٩٨.
٥) الميزان في تفسير القرآن/العلامة الطباطبائي: ١٢ /٢٦١.
٦) ينظر: دروس المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، محمد علي الرضائي الأصفهاني:٨٦.
٧) المصدر السابق :٧٩.
٨) ينظر: دروس المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن: ٨١.
٩) الكافي/الكليني: ١٢/٨.
١٠) ينظر: دروس المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن: ٨٣.
١١) ينظر: التفسير الأثري عند المسلمين/حيدر حب الله: ٤٢.
١٢) ينظر: التمهيد محمد هادي معرفة: ٤٤٦/٩.
١٣) ينظر: التفسير الأثري عند المسلمين: ٢٤-٢٥.
١٤) دروس تمهيدية في القواعد الرجالية: ١٧٤.
١٥) ينظر: التفسير الأثري عند المسلمين: ٤٢.
١٦) التفسير والمفسرون/الذهبي:١١٦/١.
١٧) ١٧- الموضوعات/ابن الجوزي: ١/ ٣٨.
١٨) صحيح البخاري: ٦ / ٧٢.
١٩) مجاز القرآن/معمر بن المثنى التيمي: ٢٦٦/٢.
٢٠) الموضوعات/ابن الجوزي: ٤١/١.
٢١) ينظر: التفسير والمفسرون بثوبه القشيب، محمد هادي معرفة:٢ / ٥٩٤.
٢٢) ينظر: منهج النقد في التفسير: د. إحسان الأمين:٨٣.
٢٣) ينظر: المصدر السابق.
٢٤) مسند أحمد: ٣ /٣٨٧.
٢٥) الإسرائيليات في التفسير والحديث، الذهبي: ١١٩.
٢٦) الميزان: ١١٢/١٢.

في فضل الإمام الرضا عليه السلام

الحافظ الشيخ محمد بن حبان بن أبي حاتم التميمي البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ، من أعلام السُّنة ومن أئمة الجرح والتعديل، حينما يتعرض لترجمة الإمام الرضا (ع) في كتابه (الثقات/ ج ٨ ص ٤٥٦ ط دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد) يقول:

علي بن موسى الرضا، وهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن من سادات أهل البيت وعقلائهم، وجلة الهاشميين ونبلائهم، يجب أن يعتبر حديثه.

ومات علي بن موسى الرضا بطوس من شربة سقاه إياها المأمون فمات من ساعته، وقبره بسناباد خارج النوقان مشهور يزار بجنب قبر الرشيد، قد زرته مرارًا كثيرة، وما حلَّت بي شدَّة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر علي بن موسى الرضا صلوات الله على جده وعليه ودعوت الله إزالتها عني إلّا استجيب لي وزالت عني تلك الشدة، وهذا شيء جربته مرارًا فوجدته كذلك، أماتنا الله على محبة المصطفى وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

التوجيه الدلالي

لآية تعدّد الزوجات في القرآن الكريم

أ.م.د. عادل عباس النصراوي
كلية التربية الأساسية – جامعة الكوفة

ينابيع نزل قوله تعالى: (**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا**) (النساء:٣) في تعدّد الزيجات لضرورة يقتضيها ما آل إليه حال المجتمع الإسلامي.

ولعلّ الدلالة المركزية والمحورية في هذه الآية المباركة هي العدالة في معاملة الزوجات سواء كنّ من اليتامى أم من غيرهن وبيان العدد المسموح للزواج بهنّ بعد أن كان العرب يتزوّجون ما شاء لهم فقد ورد أن غيلان بن أمّية عندما أسلم كان تحته عشر نسوة، فأمره النبي ﷺ أن يختار أربعًا منهنّ ويفارق سائرهن، وذُكر أيضًا أنّ القيس بن الحارث كان عنده ثمان نسوة حرائر فذكر ذلك للنبي ﷺ فأمره أن يختار أربعًا منهنّ[1].

فتعدّد الزوجات نظام شائع عند العرب وغيرهم من الأقوام كالرومان، حتى عجزت عن محوه القوانين الصارمة، وكان هذا نظامًا اجتماعيًا عند قبائل الجرمان كذلك، وكان مباحًا عند المصريين، وقد مارسه الإغريق وأباحته التوراة، وكان اليهود يمارسونه في أوربا في القرون الوسطى، وما زالوا يمارسونه في البلاد الإسلامية[2].

عندما جاء الإسلام أخذ يقنّن هذه المسألة ويضع لها ضوابط تكفل العدالة في ذلك فناشد المؤمنين بضرورة أن يكونوا هم من يعمل على بسط العدالة والمساواة في الزواج وخاصة عند تعدّد الزوجات.

ربما يعود سبب عدم العدالة إلى أنّ بعض القبائل كانت تنظر للمرأة نظرة بغض لأنّها في نظرهم تجلب العار عند سبيها وأخذها أسيرة فكان العربي عندما تلد له زوجته بنتًا يئدها لعارها حتى نهت السماء عن ذلك فنزل قوله تعالى: (**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ*بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**) (التكوير: ٨) وقد يبيت الرجل عند غير أهله بسبب ذلك، وهذا أبو حمزة الضبيّ هجر امرأته وكان يقيل ويبيت عند جيرانٍ له حين ولدت امرأته بنتًا فمرّ يومًا بخبائها وإذا هي ترقّصها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظلُّ في البيت الذي يلينا

غضبان ألاّ نلد البنينا
تالله ما ذاك في أيدينا
وإنّما نأخذ ما أُعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوا فينا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبّل رأس امرأته وابنتها[٣].

وقد يرجع نظام تعدّد الزوجات في مثل هذا الحال وشيوعه إلى الحروب وإلى وقوع النساء في الأسر فيكون الأولاد منها تابعين لمن يأسرها ويلتحقون به ويأخذون نسبه لأنها تكون ملكًا له فلذلك عُوملت الزوجة بعد وفاة زوجها معاملة التركة[٤]. ولهذا ولغيره شدّد الإسلام على ضرورة العدل والقسط مع النساء وخاصة اليتيمات منهنّ.

فقوله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فالخوف في أصل معناه في اللغة الفزع[٥]، وأوردها علماء العربية في الأضداد (قال أبو عبيدة: ومن الأضداد الخوف، يقال: خاف يخافُ خوفًا من الفزع الذي لا يتيقّن وخافَ يخافُ خوفًا إذا أيقن الشيء وقال جلّ اسمه: (**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا**) (النساء:٣)أي ايقنتم، وقوله:(**إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ**) (البقرة:٢٢٩)، أي يوقنا بذلك)[٦]، وإنّما مرجع ذلك إلى كون الفعل (خاف) يتعدى إلى مفعوله مرة بـ (منْ) فيكون معناه الفزع الذي لا يتيقّن، ويتعدّى بـ (على) فيكون بمعنى التيقّن في وقوع الفزع، فلما أطلق الفعل في هذه الآية احتمل الأمرين لذا جعل الله تعالى تقدير ذلك لأولي الأمر بعدما عرفوا حدوده في عدم السطو على أموال اليتامى من النساء والاستحواذ عليها في إجبارهن على النكاح بهم لأجل ذلك.

فإطلاق الخوف بعدم استعمال حرف الجر المناسب قد أوقعَ المعنيَيْن لأجل أخذ الحيطة والحذر والتدبّر في نكاح يتامى النساء فأرشدهم تعالى في مثل هذه الحالة إلى نكاح مَن كانوا هم على يقين من عدم الوقوع في الجور تجاههن، ووافق هذا التعدّد في احتمالات الدلالة في (خفتم) أنه تعالى أردفها بـ(ألاّ تقسطوا) والإقساط هو العدل وزيادة في معنى آخر، لأنَّ العدل ضد الجور، والزيادة تتمثل بالقسمة التي يقسمها الذي يقدرها أو من اختصّ بها في أمرٍ ما، لأنّ الإقساط هو تمثيل لما يقدّره المقسط ومصداق ذلك ما نقله ابن منظور إذ يقول: (وفي الحديث: أنّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه. القسط: الميزان، سمي به من القسط العدل، أراد أن الله يخفض ويرفع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه وأرزاقهم النازلة من عنده كما يرفع الوزّان يده ويخفضها عند الوزن، وهو تمثيل لما يقدّره الله وينزله)[٧]، فجعل من المقسط هو الذي يضع الموازين ويقدّرها كما يرفع الوزّان يده ويخفضها عند الوزن ليحكم بالعدل، لذا فإنّ دلالة القسط هي العدل متصّلة بمن يقدّر ذلك العدل، فهي دعوة لأولياء الأمر في اليتامى أن يكونوا عادلين في ولايتهم، وهم الذين يقدرون ذلك لأنهم أعرف بأمر اليتامى من غيرهم فضلًا على كونهم محاسبين أمام الله تعالى يوم القيامة، زيادة في دلالة الخوف فوسّعَه تعالى بعد تقييد

فعل الخوف بحرف الجر فأطلق المعنى لتوسعة معنى الإقساط.

وقد ذهب غير واحد إلى أنّ هذه الجملة القرآنية لا تُعنى بنكاح اليتامى من نساء المسلمين وإنما تختص بولايتهم والخوف من عدم العدل فيهم[٨]، وهذا بعيد بدلالة قوله تعالى: (**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ...**) (النساء: ٣)، فضلاً عن أنّ محورَ حديثَ الآية النكاحُ أصلاً، وعليه فإنّ تقدير (في نكاح اليتامى) أو (في مهورهن وفي النفقة عليهن) يكون هو الأوْلى ويعضده ما جاء من سبب النزول إذ (روي عن عائشة إنّها قالت: نزلت في اليتيمة التي تكون في حجر وليّها فيرغب في مالها وجمالها، ويريد أن ينكحها بدون صداق مثلها فنهوا أن ينكحوهنّ إلّا أن يقسطوا لها صداق مثلها وأُمروا أن ينكحوا ما طاب مما سواهن من النساء إلى أربع)[٩]، وسقوط غير هذا مما روي عن سبب النزول.

وقوله سبحانه: (**وَإِنْ خِفْتُمْ**) شرط وجوابه (فَانكِحُوا) ويعضّده ما ذكرناه في سبب النزول، وهو المروي عن عائشة والإمام محمد الباقر عليه السلام[١٠]، ومما يلفت النظر فيه أن فعل الشرط جاء ماضيًا، وذهب النحاة إلى أنّ معناه الاستقبال وفي ذلك إنزال غير المتيقّن وغير الواقع منزلة الواقع[١١]، وهذا يدلّل أن الخوف من عدم العدل واقع لا محالة بدلالة الزمن الماضي الذي ورد فيه فعل الخوف وعدم الإقساط، جاء عن ابن جني: (وكذلك قولهم: إن قمتَ قمت، فيجيء بلفظ الماضي والمعنى (معنىَ المضارع) وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ (الماضي المقطوع) حتى كأنَّ هذا قد وقع واستقرّ لا أنّه متوقّع مترقّب وهذا تفسير أبي عليّ عن أبي بكر وما أحسنه)[١٢].

وهذا يدلل على وقوع عدم العدل مع الزوجات في كلّ الأحوال، ولذلك نجد تكرار فعل عدم العدل والخوف منه أكثر من مرة في هذه الآية فذكر (إلا تقسطوا، إلا تعدلوا، إلا تعولوا) والأخيرة جاءت بمعنى (إلا تعدلوا) على أصحّ الأقوال.

وقوله تعالى: (**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**) هو جواب للشرط (وإن خفتم)، وقد جاء بصيغة الأمر في (فانكحوا) إلاّ أنّه لا يدلّ على وجوب النكاح في حال بدلالة التخيير بين الحرائر وملك اليمين في ذيل الآية المباركة، وقوله تعالى: (**مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**) (النساء:٣) جاء على سبيل الإطلاق في العدد ثمّ قيّد هذا الإطلاق باثنين وثلاثة وأربعة على البدلية، ولو قيل لماذا استعمل (ما) وهي لغير العاقل بدلًا من (من) للعاقل، والجواب أن الموضع هنا موضع إبهام فيليق به استعمال

(ما) فلا يقصد فيه التفصيل والتخصيص وإنما قصد الصفات والأجناس فحَسُنَ لذلك استعمالها دون (من)[١٣]، أي جنس النساء المستطابة من الرجال في الأمور الزوجية وبناء الأسرة السليمة، لذا فإنّ هذا يأخذ بنا إلى القول بعدم إجبار المرأة على الزواج إلاّ بمن ترضىَ به وأن لا تكون دون سن البلوغ، ولعلّ لفظة (طاب) توحي بذلك إذ إنّ دلالتها تعني النضج، فالبنت التي هي في سن دون سن البلوغ لا يمكن أن يأتي ثمارها من حيث مواضع الزوجية والإنجاب وغيرها.

وربما يعني بـ (ما طاب لكم) من الزواج المحلل، وقد حدّد تعالى النساء التي يحرم الزواج بهنّ.

فباتساع دلالة (طاب) توسّعت معها الدلالة في هذه الآية فلم يشمل الطيب من النساء بل شمل أيضًا الطيّب من الزواج المؤدّي إلى طهارة الولد لأجل طهارة المجتمع من الرجس، فالاحتمالان ممكنان في هذا النص المبارك.

ثم حدّد عدد الزوجات بالاثنين أو بالثلاث أو بالأربع على أنّ اجتماعهن عند زوج واحد يكون بشرط العدالة بينهنّ من قِبَلِه وإلا فالنكاح بواحدة أو ما ملكت يمين الرجل من الإماء.

وقال تعالى: (**مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ**) جاء بها معدولة عن اثنين وثلاث وأربع ولم يأت بها على أصلها، ولعلّ ذلك راجع إلى أنّ الاسم المعدول لابدّ وأن تكون له زيادة في معنى غير فائدة الاسم المعدول عنه، وألا يجيء به فقد تكون الفائدة في حصر العدد على ما قرّر سبحانه باثنين وثلاث وأربع على سبيل التخيير بينها، ولو أراد التخير لاستعمل (أو) بدلًا من (الواو) بل على سبيل التحديد والحصر والإذن بها وعدم الزيادة على هذه الأعداد إذ إنّ دلالة (الواو) هنا ليست للجمع ـ على رأي أكثر المفسرين[١٤]. ولو أراد بها الجمع لدلّ على إباحة تسع وهو مخالف لإجماع الأمّة بدلالة أمر النبي محمد ﷺ لغيلان بن أمية عندما أسلم وتحته عشر نسوة أن يختار منهنّ أربع حرائر، وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام :(لا يحلّ لماء الرجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر)[١٥].

قوله سبحانه: (**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**)، أي فإن خفتم الجور في نكاح النساء. وجاء بلفظة (ألّا تعدلوا) لأنّه لمطلق عدم العدل في النساء ولكن عندما خصّص الخوف بعدم العدل في يتامى النساء جاء بلفظة (ألّا تقسطوا) للزيادة في المعنى كما بيّنا ذلك. وجملة (**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا**) جملة فعل الشرط وجوابها (فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)، والفاء فيها رابطة وتقدير فعل الشرط (فانكحوا واحدة أو...) وفي قراءة الأعرج جاءت (واحدة) بالرفع على تقدير (فواحدة تقنع) فهو ابتداء محذوف الخبر، أو يكون خبرًا لمبتدأ محذوف وتقديره فهي واحدة[١٦]. والأول هو الأوْلى لأنّ مدار حديث الآية على النكاح ولأنّه متعلّق بقوله سبحانه: (**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**....) الآية، فالمسوّغ أن يكون فعل النكاح هو الأقرب لذلك، ثم إنّ تقدير الفعل أفضل من تقدير الاسم في هذا المقام وذلك أنّ الجملة الفعليّة جملة دالة على التغيرّ والجملة الاسمية دالة على الثبات وهذا التغيّر ألصق بالمعنى العام للآية وذلك أن حال الرجل قد يختلف في المستقبل عمّا هو عليه اليوم من القدرة على الزواج من ثانية أو ثالثة ومن

العَدْل بين نسائه فيكون تقدير الفعل أفضل من تقدير الاسم.

وقوله تعالى: (**ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا**) أي ذلك أقرب إلى أن لا تجوروا وتميلوا عن الحق، لأنّ أصل العول في اللغة (الخروج عن الحد والمجاوزة للقدر)[١٧] فالجور هو خروج عن حد العدل وهو رأي أكثر العلماء[١٨].

---

١) ظ: الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي: ٢٠/٣، التفسير الكبير/الفخر الرازي:٤٨٨/٣.

٢) ظ: الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي:٢٢٤/٢٢٣.

٣) ظ: البيان والتبيين/الجاحظ:١٨٦/١.

٤) ظ: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/د. جواد علي: ٥٣٣/٥.

٥) ظ: لسان العرب/ابن منظور: ٢٤٨/٤، مادة(خوف).

٦) الأضداد، أبو الطيب اللغوي:٢٣٦/١، ظ: مجاز القرآن، أبو عبيدة:١١٦/١.

٧) لسان العرب، ابن منظور:١٥٩/١١، مادة(قسط).

٨) ظ: معاني القرآن: الفراء:٥٣/١، التفسير الكبير، الفخر الرازي:٢٨٥/٣.

٩) التبيان، الطوسي: ١٠٣/٣، ظ: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي:١٥/٣، التفسير الكبير، الفخر الرازي:٤٨٥/٣.

١٠) ظ: التبيان، الطوسي:١٠٤/٣.

١١) ظ: معاني النحو، د. فاضل السامرائي:٤٧/٤.

١٢) الخصائص، ابن جني:١٠٧/٣، ظ: معاني النحو، د. فاضل السامرائي:٤٧/٤-٤٨.

١٣) ظ: حقائق التأويل، الشريف الرضي:٣٠٦.

١٤) مجمع البيان، الطبرسي: م٦/٢.

١٥) ظ: م.ن: م٥/٢، البحر المحيط، أبو حيان: ٢٢٨/٣، التفسير الكبير، الفخر الرازي: ٤٨٨/٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٠/٣، إملاء ما منّ به الرحمن، العكبري: ١٦٦/١. كنز العرفان، السيوري:٤٩٩.

١٦) ظ: مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب:١١٣، البيان في إعراب غريب القرآن، الأنباري:٣٤٢/١، إعراب القرآن، النحاس:١٧١.

[١٧] مجمع البيان، الطبرسي: م٦/٢.

١٧) حقائق التأويل، الشريف الرضي:٣٠١.

١٨) ظ: وضح البرهان، النيسابوري:٢٧٤/١، مجاز القرآن، أبو عبيدة:١١٧/١، معاني القرآن، الفراء:٢٥٥/١، التفسير الكبير، الفخر الرازي:٤٨٩/٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٣/٣.

في العبودية

قال الصادق عليه السلام: أصول المعاملات تقع في أربعة أوجه: معاملة الله، ومعاملة النفس، ومعاملة الخلق، ومعاملة الدنيا. وكل وجه منها منقسم على سبعة أركان:

أما أصول معاملة الله تعالى فسبعة أشياء: أداء حقِّه، وحفظ حدِّه، وشكر عطائه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، وتعظيم حرمته، والشوق إليه.

وأصول معاملة النفس سبعة: الخوف، والجهد، وحمل الأذى، والرياضة، وطلب الصدق، والإخلاص، وإخراجها من محبوبها، وربطها في الفقر.

وأصول معاملة الخلق سبعة: الحلم، والعفو، والتواضع، والسخاء، والشفقة، والنصح، والعدل، والإنصاف.

وأصول معامله الدنيا سبعة: الرضا بالدون، والإيثار بالموجود، وترك طلب المفقود، وبغض الكثرة، واختيار الزهد، ومعرفة آفاتها، ورفض شهواتها، ورفض الرياسة.

فإذا حصلت هذه الخصال في نفس واحدة فهو من خاصة الله وعباده المقربين وأوليائه حقًا.

(مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة/ المنسوب للإمام الصادق عليه السلام)

زينة الصفات

* قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

العفاف زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والفصاحة زينة الكلام، والعدل زينة الإيمان، والسكينة زينة العبادة، والحفظ زينة الرواية، وحفظ الحجاج زينة العلم، وحسن الأدب زينة العقل، وبسط الوجه زينة الحلم، والإيثار زينة الزهد، وبذل الموجود زينة اليقين، والتقلل زينة القناعة، وترك المن زينة المعروف، والخشوع زينة الصلاة، وترك ما لا يعني زينة الورع.

(جامع الأخبار/ الفصل٧٩ص١٤٣)

الترغيب والترهيب الحسّي في يوم القيامة

مُحسِنْ عَبدُ العَظيمِ هَادِيْ الخَاقَانِي

ينابيع التصوير الحسي لأحوال يوم القيامة

جاءت دعوة الأنبياء من خلال الكتب السماوية، تتحدث عن عقيدة الإيمان بالله سبحانه وتعالى، مقرونة بعقيدة الإيمان باليوم الآخر، والذي تكون الجنة والنار جزاءً لهذا اليوم، وقد اهتم القرآن الكريم كثيرًا بتصوير هذه العقيدة، فعقيدة الإيمان بالله توضح أن الله تعالى هو الخالق العادل لهذا الكون والمُنشئ له من العدم، وعقيدة الإيمان باليوم الآخر توضح المصير الذي ينتهي إليه ذلك الكون، وأن الجنة والنار هما الداران لثواب الإنسان أو عقابه، (وقد استعان القرآن كثيرًا بـ (المشاهدة الحسيّة) ليس في مسألة التوحيد فحسب، بل في مسألة المعاد أي ثاني أهم مسألة في الإسلام أيضًا، وقد صوّر لنا لقطات من المعاد بالاستعانة بنفس الطبيعة المشهودة لنا)[1].

عقيدة المعاد ضرورة عقلية

وكذلك تُعد عقيدة اليوم الآخر ضرورة عقلية لأن (مما يحيله العقل اختصاص لطفه تعالى بهذه الأيام القلائل التي هي كظلّ زائل، ثم لولا ذلك لم يحسن الوعد والوعيد، والترغيب والتهديد، ولساوى أفضل الأنبياء في الفضيلة، أشقى الأشقياء)[2]، وإنَّ يوم القيامة، موطن جزاء الأعمال في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**

فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (النحل:٦١)، وقد دلت الآيات على أن كل مظلمة ومعصية مأخوذ بها فيما بعد الموت وفي القيامة، إلّا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة أو نحو ذلك[٣].

والمقدار الواجب بعد معرفة أصل المعاد، معرفة الحساب، وترتب الثواب والعقاب، ولا تجب المعرفة على التحقيق التي لا يصلها إلاّ صاحب النظر الدقيق، كالعلم بأن الأبدان هل تعود بذواتها؟ أو إنما يعود ما يماثلها بهيئاتها؟ وأن الأرواح هل تعدم كالأجساد؟ أو تبقى مستمرة حتى تتصل بالأبدان عند المعاد؟... وكذا حيث يجب عليه معرفة الميزان، لا يجب عليه معرفة أنها ميزان معنوية، أو لها كفتان، لا يشترط في تحقق الإسلام معرفة أنهما من الأجسام، وإن كانت الجسمية هي الأوفق بالاعتبار، وربما وجب القول بها عملاً بظاهر الأخبار[٤]، لذا فإنّ (تلك العقيدة في البعث والمعاد على بساطتها هي التي جاء بها الدين الإسلامي، فإذا أراد الانسان أن يتجاوزها إلى تفصيلها بأكثر ممّا جاء في القرآن ليقنع نفسه دفعًا للشُبه ـ التي يثيرها الباحثون والمشككون بالتماس البرهان العقلي أو التجربة الحسيّة ـ فانّه إنّما يجني على نفسه، ويقع في مشكلات ومنازعات لا نهاية لها)[٥].

لذا ينبغي لمن صُبِغ بصبغة الإسلام، وتجنب عن متابعة الهوى والشيطان، أن يشغل فكره فيما يصلح أمره ويرفع عند الله قدره، ويستعين على نفسه بالتفكير فيما يصيبه إذا حلّ في رمسه، وما يلقى من الشدائد العظام بعد الحضور بين يدي الملك العلاّم، ويكثر النظر في المرّغبات المحرّكة للنفس إلى طاعة رب السموات كالتفكر في تلك الجنان وما فيها من الحور والولدان، والتأمل في تلك الأشجار الحاوية لما تشتهيه الأنفس من الثمار، فينبغي للعاقل أن يفرض الجنة كأنها بين يديه، ويخَيل النار كأنها مشرفة عليه، هذه تسوقه وتلك تقوده، فليخش من لحوق السائق وليحكم الجاذب حذرًا من انقطاع الزمام بيد القائد[٦].

القرآن الكريم واليوم الآخِر

وقد تحدَّث القرآن الكريم عن اليوم الآخر حديثًا واسعًا يفصّل القولَ عن أدق مواقفه ومراحله بطريقة جماليةٍ حسيّة تأخذ بالقلوب وتنسرب إلى النفس، وتقتنع به العقول سريعًا، ومن هنا عُدَّت مشاهد اليوم الآخر من أوسع مشاهد القرآن امتدادًا في الزمان والمكان، وأكثرها غزارةً وإثارةً، فتبدو الحياة في مشاهده، ليست هذه الحياة فقط، التي تمثل عمر الإنسان الفاني، على ظهر هذه الأرض المحدودة، بل هناك حياة ممتدة في الزمان والمكان، في عالم اليوم الآخر الغيبي، الذي لا نعرف عنه شيئًا إلّا من خلال هذه المشاهد المصوّرة له، لتقريبه من الأذهان[٧].

وعندما يهتم القرآن الكريم بذلك اليوم، فهو (يهدف من عرض مشاهد القيامة فيه إلى أن تكون حاضرة في ذهن وحس وقلب ووجدان وشعور

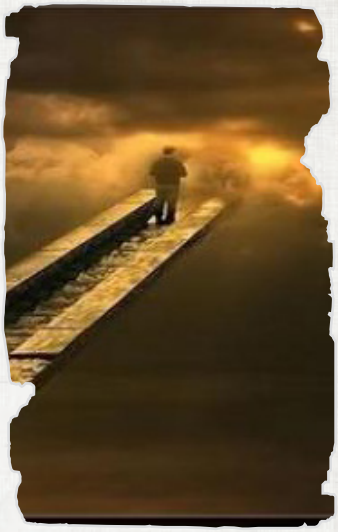

المؤمن، وهو يتحرك على وجه الأرض، يرجو نعيمها ويخشى عذابها، وهي لن تكون حاضرة حيّة، مؤثرة موحية، تؤدي الغاية من إيرادها، إلّا إذا عرضت بأسلوب معين، وطريقة خاصة، تمنحها هذا التأثير)[٨]، فالأنسان مجموعة مشاعر وأحاسيس، يرغب بما هو قريب من نفسه، وبالعكس، لذا فإن القرآن الكريم يتحدث عن اليوم الآخر بما فيه من ترغيب وترهيب وبأسلوبٍ حسيّ مشهود، لتكون (مشاهد القيامة مصوَّرة في جمال متناسق يتجلّى في مفردات المشهد وجزئياته، فترد تلك المفردات مجدولةً في نسق تعبيري معجز، من حيث التماثل والتضاد، والتجسيم والتشخيص، والحركة والفعل مصحوبةً بدلالات الألفاظ وجرسها، وجمال المجاز والتخييل، وظلال الألوان وتنوعها، وصدى الأصوات وترددها، مما يعطي للمشهد إيقاعه واتساقه)[٩].

لذا نجد أن القرآن الكريم قد اعتمد في عرض هذه المشاهد على التصوير الحسّي الرائع، حتى بلغ الأمر بأن (لم يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده النّاس بعد هذا العالم الآخر، موصوفًا فحسب، بل عاد مصوَّرًا محسوسًا، وحيًّا متحركًا، وبارزًا شاخصًا، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة، رأوا مشاهده، وتأثروا بها؛ وخفقت قلوبهم تارةً، واقشعرت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم الاطمئنان أخرى، ولفحهم من النّار شواظ، ورفٌ إليهم من الجنّة نسيم، ومن ثمّ باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود)[١٠]، والقرآن الكريم عندما ينهج منهج التصوير الحسي، للتعبير عن المعاني المجردة، وما يصيب الكافر من عذاب وعقاب، وما يجد المؤمن من رحمة ونعيم، لتكون أكثر تأثيرًا ورسوخًا في النفس مما لو كانت الألفاظ والكلمات ذوات دلالات مباشرة، فتظل قائمة نُصب الأعين لا تغيب، وراسخة في الأذهان لا تُمحى، فتؤدي دورها في الترغيب والترهيب، والاعتقاد الصحيح أن الجزاء يوم القيامة ينطوي على بعدين: مادي ومعنوي، لأن المعاد أيضًا مادي ومعنوي، فنجد أن (الثواب الإلهي والنعم الموجودة في الجنة تقسم يوم القيامة الى قسمين (روحية) و(مادية)... فكذلك عذاب جهنم أيضًا، إذ يُقسم هو الآخر إلى نوعين: روحي ومادي، لأننا نعلم أن للمعاد بعدين يستدعي كل منهما ما يستحقه من الثواب والعقاب، إضافة إلى أن أعمال الإنسان في هذه الدنيا على صنفين أيضًا أولهما (الأعمال القلبية والروحية)، وثانيهما (الأعمال الجسمية والمادية) وعلى هذا فمن غير الممكن أن يقتصر الثواب والعقاب هناك على نوع واحد)[١١].

حقيقة المعاد الجسماني

وبهذا نصل إلى حقيقة مفادها أن هناك معادًا جسمانيًا للإنسان، وهذه الحقيقة تمثل ضرورة من ضرورات الدين الإسلامي، دلّ صريح القرآن الكريم عليها، قال تعالى: (**أيَحسَبُ الانسانُ أنْ لَنْ**

نَجمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة:٣- ٤)، وقال تعالى: **(وَإِن تَعجب فَعَجَبٌ قَولُهُم أءذَا كُنّا تُراباً أءنّا لَفي خَلقٍ جَديد)** (الرعد:٥)، وكذلك قال تعالى: **(أَفَعَيينَا بالخَلقِ الاوّلِ بَل هُم في لَبس من خَلقٍ جَديد)** (ق:١٥)، وما المعاد الجسماني - على إجماله - إلاّ إعادة الإنسان في يوم البعث والنشور ببدنه بعد الخراب، وإرجاعه إلى هيئته الأولى بعد أن يصبح رميمًا، ولا يجب الاعتقاد في تفصيلات المعاد الجسماني أكثر من هذه العقيدة على بساطتها التي نادى بها القرآن، وأكثر ممّا يتبعها من الحساب والصراط، والميزان والجنّة والنّار، والثواب والعقاب، بمقدار ما جاءت به التفصيلات القرآنية[١٢].

وإن مما يزيد في كرب يوم القيامة وعذابه أنه يوم طويل، كما قال تعالى: **(تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)** (المعارج:٤)، وهذا اليوم يكون طويلاً على الكافرين فيه عذاب أليم، ويكون يومًا خفيفًا ورحمة للمؤمنين، كما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: (لما نزلت هذه الآية قيل: يا رسولَ الله مَا أَطْوَلَ هذا اليَوْم؟ فقال رسول الله ﷺ: والَّذي نَفْسي بيَده، إنَّهُ لَيَخفُّ عَلَى المُؤْمن حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيها فِي الدُّنْيا)[١٣].

صور يوم القيامة في القرآن

ويصور القرآن الكريم بعض الحوادث التي تنذر بنهاية هذا العالم وبدء قيام الساعة، وتكون بمرأى ومسمع من الإنسان، أي تكون مُدركةً ومحسوسةً، فمن علامات نهاية عالم الدنيا، اختلال نظام الكواكب، وانشقاق الأجرام السماوية، وانطفاء قرص الشمس، كما ذكرت ذلك بعض السور[١٤]، وكذلك انفجار البحار[١٥]، والزلزلة العظيمة التي تهتز لها جميع أنحاء الأرض[١٦]، وهذه الحوادث العظيمة تُنبئ عن زوال الدنيا وبدء القيامة، وهي مما يصاحب البعث والنفخ في الصور بشكل متتابع، فلنأخذ على سبيل المثال لا الحصر عملية تلاشي الجبال ونسفها، التي وردت في آيات عديدة من القرآن الكريم، وذكرت لها عدة مراحل مختلفة ويمكن تقسيمها وتلخيصها على سبع مراحل[١٧]:

الأولى: اهتزاز الجبال وارتجافها **(يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ)** (المزمل:١٤).

الثانية: حملها وقلعها: **(وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ)** (الحاقة:١٤).

الثالثة: تسييرها: **(وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)** (الطور:١٠).

الرابعة: الدك والهدم **(وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)** (الحاقة:١٤)، **(وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا)** (المزمل:١٤).

الخامسة: الجبال فيها كالغبار المتفرق **(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا)** (الواقعة:٥- ٦).

السادسة: تكون الجبال فيها كالعهن أي كالصوف المندوف المتطاير في الريح الشديدة، ولا يرى في السماء إلّا لونها، **(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)**

(القارعة:٥).

السابعة:

تلاشي الجبال ولا يبقى منها إلّا شبح كشبح سراب في صحراء قفر، (**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا**) (النبأ:٢٠)، وهكذا سوف تزول الجبال تمامًا ولا يبقى منها أي أثر وتبدل إلى أرض مستوية لا نرى فيها عوجًا ولا أمتًا، قال تعالى: (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا* فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا* لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا**) (طه:١٠٥- ١٠٧)، وقد ورد في كلام لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام حال الجبال يوم القيامة حيث قال: (...وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ وَتَذِلُّ الشَّمُّ الشَّوَامِخُ وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَابًا رَقْرَقًا وَمَعْهَدُهَا قَاعًا سَمْلَقًا)[١٨]، وكان لهذا الحديث المستفيض عن العالم الآخر في القرآن آثاره في النفوس والأذهان.

---

١) نفحات القرآن/ الشيرازي: ٦ / ١٣٧.
٢) العقائد الجعفرية/ الشيخ جعفر كاشف الغطاء، (ت١٢٢٨هـ): ١٠٢.
٣) الميزان في تفسير القرآن/ الطباطبائي: ١٨ / ٧١.
٤) العقائد الجعفرية: ١٠٢ ـ ١٠٣.
٥) عقائد الإمامية/ المظفر: ١٦٨.
٦) العقائد الجعفرية:١٠٣- ١٠٤.
٧) وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم/ عبد السلام أحمد الراغب: ٣٢١.
٨) نظرية التصوير الفني عند سيّد قطب/ صلاح عبدالفتاح الخالدي: ٢١٥.
٩) من جماليات التصوير في القرآن الكريم، محمد قطب عبد العال: ١٦٨.
١٠) مشاهد القيامة في القرآن/ سيّد قطب: ٤٢.
١١) نفحات القرآن:٦ / ٣٦٥.
١٢) ظ: عقائد الإمامية: ١٢٧.
١٣) ظ: التبيان في تفسير القرآن/ الطوسي: ١٠ / ١١٠، وتفسير مجمع البيان/ الطبرسي: ١٠/ ١٠٦، وجامع البيان/الطبري:٢٣ / ٦٠٢.
١٤) سورة القيامة / ٨-٩، سورة التكوير / ١-٢، سورة الانفطار / ١- ٢، وغيرها.
١٥) سورة الطور / ٦، سورة التكوير / ٦، سورة الانفطار / ٣.
١٦) سورة الحج / ٢.
١٧)ظ: نفحات القرآن: ٦/ ٢٥ ـ ٢٦ .
١٨) نهج البلاغة، من الخطبة: ١٩٠.

ملف العدد

التوحيد

خطبة أمير المؤمنين

قال أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في توحيد الله

ينابيع (أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُه وكَمَالُ مَعْرِفَتِه التَّصْدِيقُ بِه، وكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِه تَوْحِيدُه، وكَمَالُ تَوْحِيدِه الإِخْلَاصُ لَه، وكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَه نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْه، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّه غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللّٰه سُبْحَانَه فَقَدْ قَرَنَه، ومَنْ قَرَنَه فَقَدْ ثَنَّاه ومَنْ ثَنَّاه فَقَدْ جَزَّأَه، ومَنْ جَزَّأَه فَقَدْ جَهِلَه ومَنْ جَهِلَه فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْه، ومَنْ أَشَارَ إِلَيْه فَقَدْ حَدَّه ومَنْ حَدَّه فَقَدْ عَدَّه، ومَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَه، ومَنْ قَالَ عَلَا مَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْه: كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ وغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ والآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْه مِنْ خَلْقِه، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ به ولَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِه.

أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً وابْتَدَأَه ابْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا ولَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، ولَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا ولَا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا، أَحَالَ الأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا ولأَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وغَرَّزَ غَرَائِزَهَا وأَلْزَمَهَا

أَشْبَاحَهَا، عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وانْتِهَائِهَا عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وأَحْنَائِهَا: ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَه فَتْقَ الأَجْوَاءِ، وشَقَّ الأَرْجَاءِ وسَكَائِكَ الْهَوَاءِ، فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِماً تَيَّارُه، مُتَرَاكِماً زَخَّارُه حَمَلَه عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، والزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ فَأَمَرَهَا بِرَدِّه، وسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّه وقَرَنَهَا إِلَى حَدِّه، الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ والْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ، ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَه رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَّهَا، وأَدَامَ مُرَبَّهَا وأَعْصَفَ مَجْرَاهَا، وأَبْعَدَ مَنْشَأَهَا فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ، وإِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ فَمَخَضَتْه مَخْضَ السِّقَاءِ، وعَصَفَتْ بِه عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ، تَرُدُّ أَوَّلَه إِلَى آخِرِه وسَاجِيَه إِلَى مَائِرِه حَتَّى عَبَّ عُبَابُه، ورَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُه، فَرَفَعَه فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ وجَوٍّ مُنْفَهِقٍ، فَسَوَّى مِنْه سَبْعَ سَمَوَاتٍ، جَعَلَ سُفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً، وعُلْيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً وسَمْكاً مَرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهَا ولَا دِسَارٍ يَنْظِمُهَا ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً وقَمَراً مُنِيراً، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ وسَقْفٍ سَائِرٍ ورَقِيمٍ مَائِرٍ.)

(نهج البلاغة/ج١ص١٤)

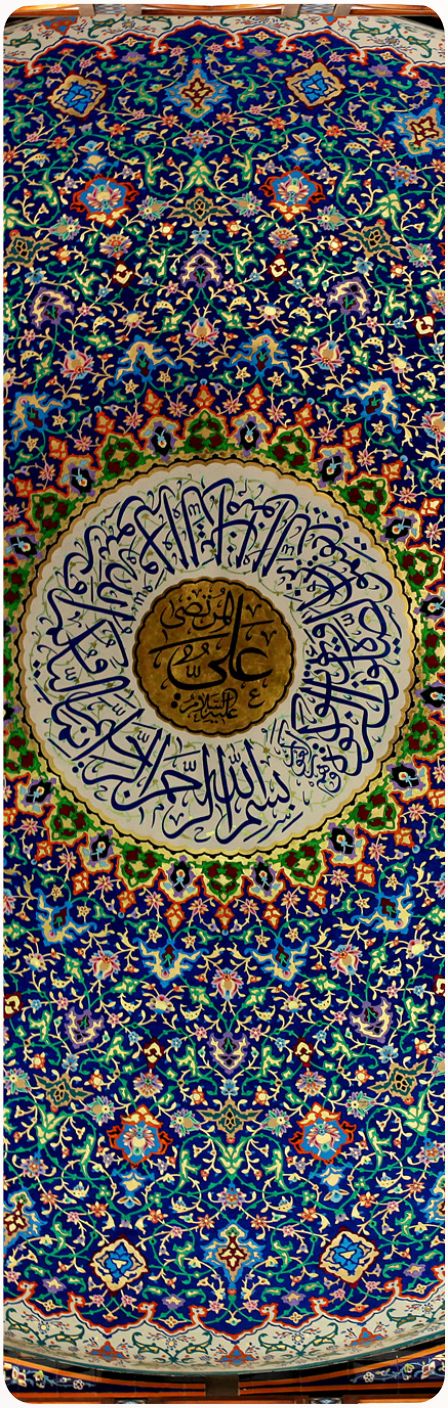

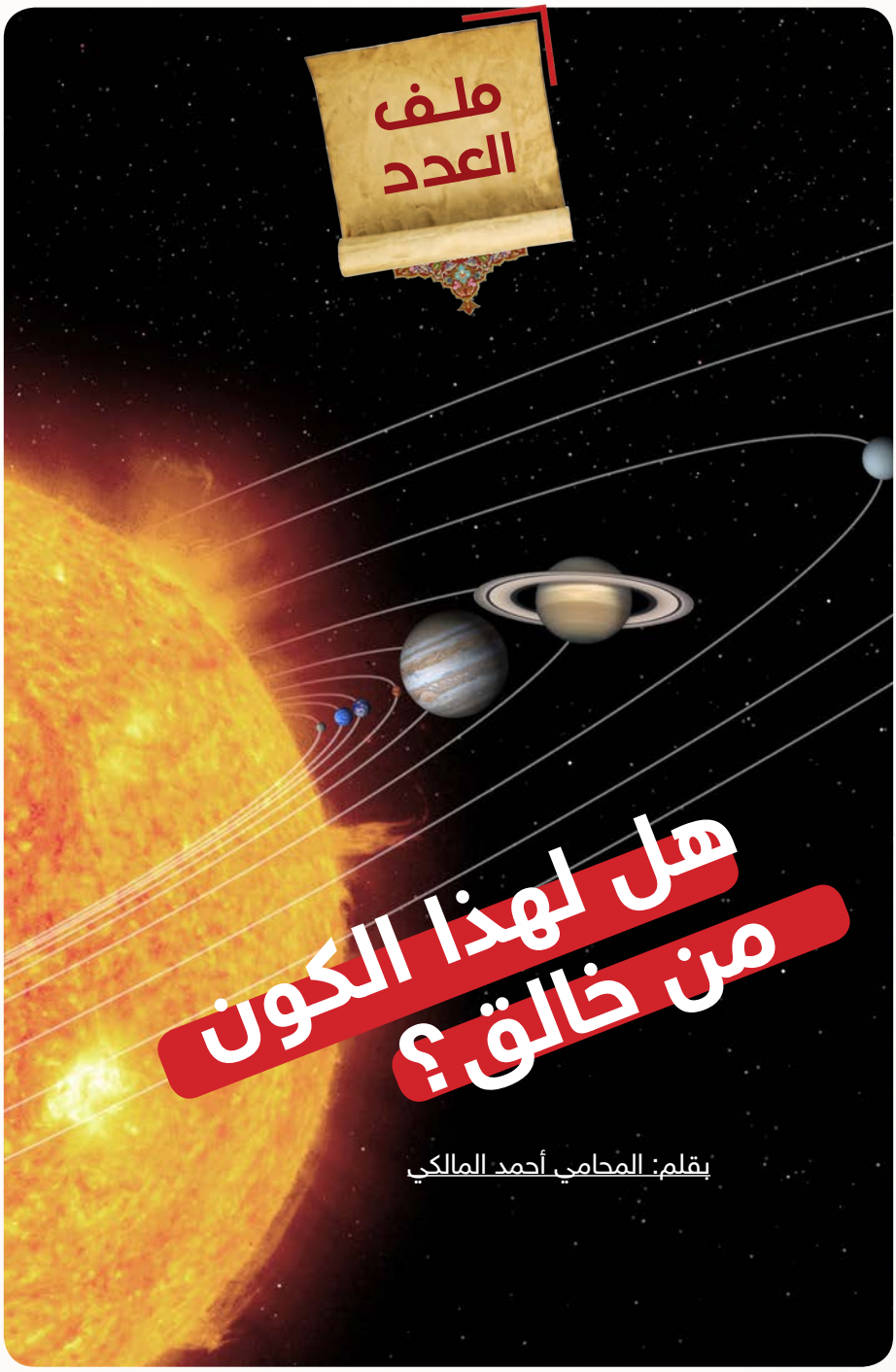

هل لهذا الكون من خالق؟

بقلم: المحامي أحمد المالكي

سؤال يبحث عن إجابة!

ينابيع

هل لهذا الكون من خالق؟ سؤال قد يراود الإنسان، وكم يتمنى معرفة الإجابة عنه، يوجهه الطفل الصغير إلى أبيه، ويطرحه الشاب المتحير المضطرب لمعرفة ما يحيط به، فيؤرقه ويقلقه، وقد لا يجد من يقدم له الجواب الشافي، ويدور في أحيان كثيرة في عقول بعض الناس، فيتهمون أنفسهم بضعف الإيمان وهذه هي وساوس الشيطان فيستعيذون بالله من الشيطان ووساوسه، وقد يشتد طرح هذا السؤال في عقل الإنسان في ساعات الضعف والنكبات والمرض وغيرها.

هذا السؤال راود الإنسان منذ القدم، ولذلك اختلفت توجهات البشر تبعًا لمستوى تفكيرهم ولما توصلوا إليه، فمنهم من اعتقد بعظمة الشمس والقمر والكواكب فعبدوها، ومنهم من عبد النار، ومنهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الله الواحد الأحد، ومنهم كفر وألحد.

وسيبقى الإنسان يتطلع للإحاطة بالإجابة على هذا السؤال مادام يعيش في هذه الحياة وله عقل يفكر به.

ويبدو أن الخلجات النفسية هذه متلازمة مع طبيعة الإنسان، وليس من الصحيح إنكارها واستنكارها والتغافل عنها، لأن سيرة الإنسان وتفكيره وسلوكه ونظرته إلى الحياة وإلى البشر وتعامله معهم، وكل كيانه ووجوده نابع من عقيدته بخالق هذا الكون وموقفه منه.

ورغم أهمية هذا السؤال، إلّا أن قليلًا من الناس يحصلون على الإجابة الشافية الوافية عنه، فالأب يرد على صغيره ردًا لطيفًا حين يسأله، أو قد يشغله بأمر آخر محاولًا إلهاءه عن سؤاله، متصورًا أن ذلك سيقنعه. وقلما يجيب المدرس عن هذا السؤال حين يطرحه أحد طلابه عليه، وعندها يبقى الطالب في حيرة من أمره إذ لم يشف علته جواب استاذه ويقنع عقله التواق للإجابة الشافية.

وكذلك لو طرح هذا السؤال على بعض رجال الدين، فسيكون جوابه غالباً هو ذكر آيات من القرآن أو بعض الأحاديث الشريفة، وهذه الإجابات على قدسيتها وأهميتها إلّا أنها ليست المطلوبة في هذه الحلات، فيضطر الشاب إلى التظاهر بالاقتناع خشية أن يتهم بعدم الإيمان أو الإلحاد.. ولكن يبقى في حيرة من أمره لأنه لم يحصل على ما يريد.

إن ما يتوق له الشاب ـ وخصوصًا في عصرنا الحالي، عصر العلم والتكنلوجيا والفضاء، حين يسأل هذا السؤال: هل من خالق لهذا الكون؟ لابد أن تكون الإجابة مستلة من أسرار هذا الكون وقوانينه، وما توصل إليه علماء الطبيعة من اكتشافات حيرت العقول. فهذه الإجابة النابعة من العقل والمنطق السليم هي التي تدعوه إلى الاقتناع والإيمان بالله سبحانه.

وبذلك يكون إيمانه مبنيًا على أسس متينة رصينة يصعب تصدعه واهتزازه لأي عاصفة فكرية خبيثة أو دعوة إلحادية مقيتة.

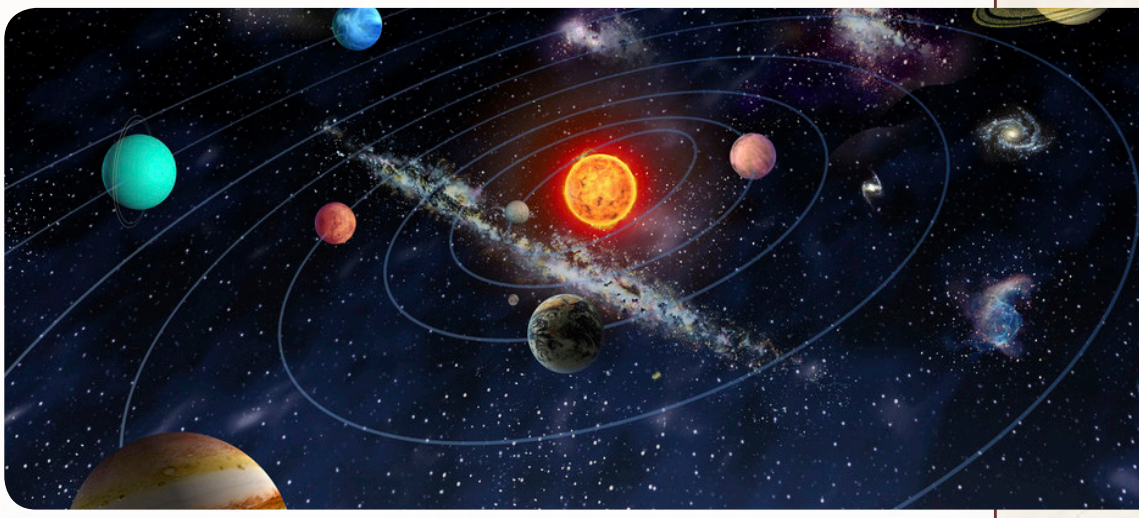

انتشار الفكر الإلحادي

إن الفكر الإلحادي الذي أخذ بالانتشار مع بدايات القرن العشرين في بلداننا العربية والإسلامية، والذي أجاد الغرب استغلالَه في بداية حضارته الصناعية، متزامنًا مع ظهور النعرات القومية والصيحات العصبية، التي جعلت من الدين السبب الرئيس لتأخر الأمة الاسلامية، وأنه الحجر الكؤود أمام تقدمها ورقيها، وبالتالي صار لزامًا على الأمة نبذ دينها وتركه، من أجل اللحاق بالأمم وركوب سفينة حضارتها وتقدمها، هذا هو منطقهم وهكذا يقولون، ناسين أو متناسين أن أسلافنا وبفضل الدين الإسلامي العظيم، هم من علموا الأمم التي كانت غارقة بجهلها وعصورها المظلمة، سبل الرقي والتقدم والحضارة، والذي بدأ بالعرب فانتشلهم من غياهب الجهل والوثنية، والانحطاط والتخلف، تنهش بهم الأمم وتغزوهم في عقر ديارهم، إلى أن يكونوا أصحاب حضارة وفكر فاق الشعوب والأمم رقيًا وازدهارًا، ثم لم يكتفوا بذلك، بل نقلوا تلك الحضارة إلى باقي الشعوب والأمم، وبقيت آثارهم العمرانية والحضارية شاخصة حتى يومنا هذا، تحكي عن عظمة هذا الدين وما خلفه من حضارة في تلك البلدان.

متجاهلين في الوقت عينه أن سبب تأخرنا عن ركب الحضارة هو ابتعادنا عن روح ديننا القويم وجوهره، وبقينا متمسكين بقشوره وظواهره دون لبابه، فحصل ما حصل بنا من تأخر وتخلف وسيطرة الأمم علينا وعلى مقدراتنا وخيراتنا.

النظام الكوني وسننه

مما أثبتته فروع العلم بكل توجهاتها أن هناك نظاماً مذهلاً متناهيًا بالدقة والإتقان يسيّر هذا الكون ومخلوقاته كبيرها وصغيرها، يعتمد القوانين والسنن التي لم تتغير ولم تتبدل، والتي يبذل العلماء جهودًا مضنية محاولين اكتشافها والإحاطة بها.

وكمثال على دقة هذا النظام وهذه السنن

استطاع العلماء أن يحددوا أوقات بعض الظواهر الكونية كالخسوف والكسوف قبل وقوعها بقرون من الزمن، أو مرور مذنب هالي من الأرض كل ٧٦ عامًا[١].

والسؤال الذي يطرح نفسه: من الذي أوجد هذه القوانين وأودعها كل هذه الدقة والانتظام والانسجام في كل جزء من أجزاء الكون، وفي كل ذرة من ذرات الوجود، بل وما دون الذرة؟ من الذي صمم فأبدع وقدر فأحسن التقدير؟

هل خُلق كل ذلك من غير خالق؟ وهل صار الوجود من غير مُوجد؟ هل ما نراه وما لا نراه حدث صدفة؟

لقد أجاب عالم الطبيعة البيولوجية (فرانك ألن)[٢] على هذه الموضوع بشكل تفصيلي، فبعد التسليم بوجود هذا الكون، احتمل (فرانك) أربعة احتمالات:

الأول: أن يكون هذا الكون وهما وخيالا! وهذا يتنافى مع فرض وجوده.

الثاني: أنه نشأ من تلقاء نفسه!

الثالث: أن يكون أبديًا ليس لنشأته بداية.

الرابع: أن يكون لهذا الكون خالق.

وقد فند (فرانك) الاحتمال الأول، بقوله: أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة...وتبعًا لهذا الرأي نستطيع أن نقول أننا نعيش في عالم من الأوهام، فمثلًا هذه القطارات التي نركبها ونلمسها ليست إلّا خيالات، وبها ركاب وهميون وتعبر أنهارًا لا وجود لها وتسير فوق جسور غير مادية.. الخ، وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال[٣].

أما الرأي الثاني، القائل: أن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم، فهو لا يقل عن سابقه سخفًا وحماقة، ولا يستحق هو أيضًا أن يكون موضعًا للنظر أو المناقشة[٤].

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية.

وإذًا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق[٥].

وهنا يدحض (فرانك ألن) هذه الفكرة، ويستشهد بأحد القوانين الطبيعية الفيزيائية وهو قانون الديناميكا الحرارية الذي يؤيد فقدان مكونات هذا الكون لحرارتها بالتدريج لتصل بالنهاية الى درجة حرارة الصفر المطلق الذي تنعدم فيه الطاقة وعندها تستحيل الحياة.

وهذا النزول التدريجي بدرجة الحرارة يدل على أن الحرارة قد بدأت في وقت من الأوقات ولم تكن أزلية. وبالتالي فإن هذا الكون حدث من الأحداث، ويخلص بنتيجة مفادها: أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا من صنع يديه[٦]. وهو الاحتمال الأخير من احتمالات وجود الكون. فإن النظام

والقانون وذلك الإبداع الذي نلمسه في الكون حيثما اتجهت أبصارنا تدل على أن خالقه قدير مبدع عليم خبير.

وهكذا أثبت العلماء وجود الله سبحانه – دون قصد – من خلال توصلهم إلى حقيقة علمية مفادها أن لهذا الكون بداية، وأن كل شيء له بداية فلا يمكن أن يكون قد بدأ إلا أن يكون له مبدئ، أو محرك أول، أو خالق، هو الإله.

ولم يكتف العلم الحديث بإثبات بداية هذا الكون، بل أثبت أكثر من ذلك، من أن هذا الكون بدأ دفعة واحدة، وأنه لايزال في اتساع مستمر.

وبنتائج العلم الحديث صار لابد للمؤمنين به والقائلين بحجيته، أن يؤمنوا بوجود خالق عظيم لهذا الكون، وهي فكرة تستشرف على سنن الطبيعة، لأن هذه السنن إنما هي ثمرة الخلق، ولابد لهم أن يسلموا بفكرة الخالق الذي وضع قوانين هذا الكون، لأن هذه القوانين ذاتها مخلوقة، وليس من المعقول أن يكون هنالك خلق دون خالق: هو الله.

وبخلق المادة الأولى لهذا الكون ثم القوانين التي تسيرها، جعلها سبحانه خاضعة للتطور لتتم عملية خلق الموجودات.

إن التطور الإبداعي هو وسيلة الخالق في خلقه، وإن الله هو الذي أبدع هذا الكون بقدرته وسن قوانينه الطبيعية، فالخلق الإبداعي هو التفسير الوحيد الذي يوضح لنا سر هذا الوجود ويوفق بين ظواهره المختلفة التي يبسطها لنا كتاب الطبيعة التي نقرأ صفحاتها في جميع العلوم المختلفة. كما أن التطور هو أحد عوامل عملية الخلق، فالتطور إذن ليس إلّا أحد السنن الكونية أو القوانين الطبيعية، وهو مرحلة من مراحل عملية الخلق، كسائر القوانين العلمية الأخرى يقوم بدور ثانوي، لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه. ولا شك في أنه من خلق الله وصنعه.

وبذلك يستدل أن فكرة التطور الخلقي ليست منافية للمفاهيم الدينية التي يصدح بها القرآن الكريم: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ)(الزمر:٦)، بل هي تكريس له، ثم يأتي الماديون ليقروا بهذا التطور في الخلق الذي أيدته العلوم الحديثة، ولكنهم لا يقرون بالخالق الذي أوجد هذا التطور..

ولو أن العاملين بالحقول البحثية العلمية أرادوا التوصل من خلال بحوثهم إلى وجود خالق مبدع، بشرط الحيادية وعدم التحيز لفكرة مسبقة، والأمانة العلمية بعيداً عن الانفعالات العاطفية، سيصلون إلى نتيجة واحدة ويقرون دون أدنى شك بوجود السبب الأول وهو الله سبحانه. لأنه التفسير الأوحد لحقائق الكون وعظمته وإبداع خلقه.

ومن نعم الله سبحانه في عصرنا الحالي أن تتم الكشوفات العلمية وتكون بمتناول أي منا دون عناء، وهو مدعاة للجميع أن يستفيدوا من هذه الاكتشافات في ترسيخ إيمانهم بالله سبحانه، وتبيينها لمن لازالوا في حيرة من أمرهم ولم يلتفتوا إليها، لهدايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من الشك والوسواس.

قال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: (وأيْمُ اللّه لَئِنْ يَهْدِيَ اللّه عَلَى يَدَيْكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ ممَّا طَلَعَتْ عَلَيْه الشَّمْسُ وغَرَبَتْ ولَكَ وَلاؤُه يَا عَلِيُّ)[٧].

١) هو نجم مذنب يكون مرئيًا بوضوح بالعين المجردة من الأرض، وهو الوحيد الذي قد يراه الإنسان في حياته مرتين.

٢) ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل – أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتويا بكندا من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٤٤- أخصائي في إبصار الألوان والبصريات الفسيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا.

٣) الله يتجلى في عصر العلم/كريسي مورسون/ ترجمة: محمود صالح الفلكي/ص١٠.

٤) م.ن.

٥) م.ن.

٦) م.ن.

٧) الكافي: الكليني/ج٥ص٢٨.

فضل فاطمة الزهراء عليها السلام في كتب العامة

* قال رسول الله ﷺ: فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني.

(صحيح البخاري/ ج٥ص٢١)

* وقال ﷺ: هذا ملك لم ينزل قبل هذه الليلة استأذن ربَّه أن يسلِّم عليَّ، ويبشّرني بأنّ فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة، وأنّ الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة.

(مسند أحمد/ ج٥ص٣٩١)

* عن عائشة أنّ النبي ﷺ قال وهو في مرضه الذي توفي فيه: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء هذه الامّة، وسيدة نساء المؤمنين.

(المستدرك على الصحيحين: ٣ – ١٥٦)

* عن عائشة قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكان إذا دخلت عليه قام إليها فقبّلها، ورحّب بها، وكذلك كانت هي تصنع به.

(المستدرك على الصحيحين : ٣ – ١٥٤)

ملف العدد

خَلْقُ الإنسان
دليلاً على التوحيد

د. علي مجيد البديري
كلية الآداب / جامعة البصرة

ينابيع باستدلال بسيط، ولكنّه مرَّ بتأمل عميق، يركنُ الأعرابي إلى قناعةٍ وإيمان، حينما يُسأَلُ: كيفَ عرفتَ اللّه؟ ليُجيبَ بثقة مطلقة: (البَعرةُ تدلُّ على البعير، والأثرُ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فِجاج، أفلا تدلُّ على العلي الخَبير؟).

من الواضح أنّ كلمات الأعرابي تَنتمي إلى فضائه الذي يعيشُ فيه، ولا تخرجُ عمّا يعيشُه ويشاهدُه كل يوم، وقد عمد إلى توسيع مجالها عبر فاعلية التأمل، لذا لم يكن محتاجًا إلى ما هو خارج هذا الفضاء بموجوداته المحسوسَة ليتشكّل يقينُه بوجود الخالق ويؤمنُ بقدرته وجلاله وقوته. فما أنتجه الأعرابي البسيط في لحظات تأمل متفرقة بين ثنايا ساعات عمله المتواصل في بيئةٍ صحراويةٍ قاسيةٍ وفقيرة، قد يضاهي ما ينفقه فيلسوفٌ أو باحثٌ في العقائد والأديان من وقتٍ طويلٍ في البحث عن الأدلة العقلية ومناقشة الآراء المختلفة في هذا المجال، والخروج بنتائج ربما تكون موضع نظر. وأسارع إلى القول بأنه لا يراد من هذا الكلام عقدُ مقارنة تقييمية بين فعلين، أو الموازنة فيما بينهما من ناحية أدوات البحث وطرائق الاستدلال، فليس هذا من شأن المقال وهدفه، فضلاً عما للبحث العلمي المتأني في موضوعات العقائد والأديان من خصوصية المناهج وسعة حقول البحث وميادينه فيها، بشكل يجعله لا يُقرأ وتُقيّم نتائجُه إلّا في ضوء خصوصيته هذه.

لا شك أنّ المشتَرَك في ما بين الفعلين هو استعمال العقل في تفعيل التأمل، ووحدة الموجّه الأكبر لهما في ذلك، المتمثل في البحث عن السؤال الوجودي الكبير عن الخالق والخلق، والهدف من الوجود

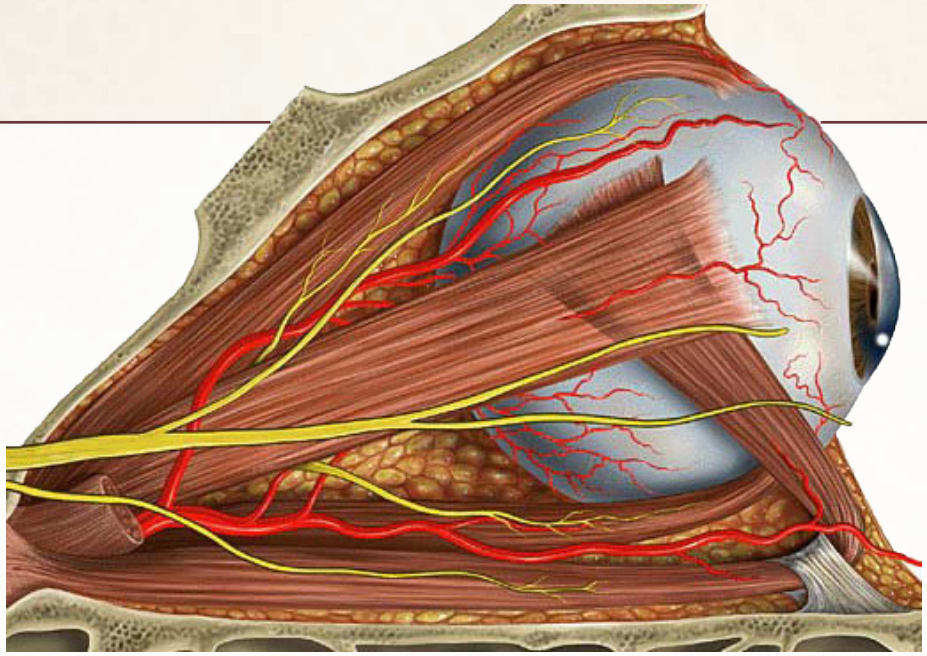

وعلته، وقد أودع الله في الإنسان القوة العقلية لتكون بمثابة جهاز يميز بوساطته بين الخير والشر، والنفع والضرر، فله الحاكمية على اختياراته وعلى قوى العواطف والأحاسيس، وفي ضوء ذلك صيغت علاقة الإنسان بمحيطه الوجودي فهو جزء منه، تتأثر به طبيعة الوظائف التي يؤديها؛ فهو كباقي الموجودات ينطوي في بنيته الوجودية على هدف وغاية مقصودة، يتحرك وجوده باتجاهها وعلى وفقها، استجابة لموجّه داخلي هو إرادة الخلق أو نظام الخلق الذي أودعه الخالق الصانع فيه، وزوده بأدوات مساعدة وقوى بما يتناسب وتحقيق ذلك، ولذا كان على الإنسان أن يحقق التوازن والتوفيق ما بين خصوصيته الوجودية ومتطلبات المحيط الوجودي، عبر إرادة وشعور يملكهما، التي تمثل مساحة اختياره ومقدار فاعليته؛ لأنها لا تستطيع التحكم بالأسباب والعلل التي أوجدته، ولذا فهو مفتقر في وجوده لخالقه، غير مستقل تمامًا عنه، وسيتساوى سعيه في اتباع ما يريده الله الخالق منه مع ما يهديه إليه نظام الوجود؛ فما يريده الله من الدين للإنسان هو نفسه ما تريده الفطرة، ويقود إليه نظام الوجود[1].

من هذا كله تتجسد خصوصية الإنسان وفرادة الهبة التي منحها الخالق تبارك وتعالى له، وأودعها فيه، فبها يتمكن من الاهتداء إلى ضفاف المعرفة التي ما إن تتحقق حتى تتحول الحياة إلى فردوس أرضي، ينعم فيها بالطمأنينة النفسية. وأول هذه المعرفة؛ التأملُ في قدرات الذات وبناء الخِلْقة الفريد الذي جاء على شاكلة فيها من العجائب التي لا تحصى، والدقةَ المتناهية في البناء الذي يربط عناصره نظامٌ دقيقٌ وحساسٌ جدًا. والانطلاقة من ذلك سيكون اتجاهها نحو الطاقات المودعة في طبيعة الوجود الكلي بكائناته ومخلوقاته، إذ مَنَحه الصانعُ القدرةَ على تسخيرها لخدمته والإفادة منها في مختلف شؤونه. وفي النتيجة سيكون استعمال كل هذه الهبات واستثمارها في صناعة الحياة الطيبة التي أرادها الخالق للمخلوق، دليل الإنسان الأنصع على صلته بموجده؛ فالغاية الكبرى من خلق الإنسان هي أنّ الله الصانع الحكيم أراد للإنسان أن يكون

مظهرًا تامًا لكامل أسمائه وصفاته، فجعل فيه القدرة على الخلق والإبداع، ليصبح وجه اللّٰه الأكمل والأتم. ومن هنا كانت نفخة الروح الإلهية في الإنسان تجسيدًا لاختصاص هذا الإنسان، في أصل فطرته بالملأ الأعلى بوصفه الصانع الخالق والمدبر، حتى ولو كانت صلته، في ضوء استجابته لمطالب الجسد، بعناصر طبيعية تربطه بالأرض، فهو في ذاته عنصر سماوي مرتبطٌ بملكوت الخالق قبل أن يكون أرضيًا. لقد منحتْ هذه الكيفيةُ الانسانَ خصائصَه الإنسانية الكبرى، فهو مجبولٌ من عناصر هذه الأرض التي تكللت باختصاصه بالنفخة العلوية وجعلتْ منه مخلوقًا مختلفًا عن سائر الأحياء. ولعل من أولى هذه الخصائص امتلاكُه القدرة على الارتقاء بنفسه من ماديته في سلم المدارك العليا الخاصة بعالم الإنسان، إلى العالم التجريدي المختص بمدارك البصائر والقلوب والعقول، مفيدًا من النفخة الإلهية في الانعتاق من أسر المادة وأدواتها الحسية[٢].

عندما يدرك الانسان عبر وعيه بذاته ومعرفة نفسه، ضرورة النجاة من مزالق الانجراف إلى نهم المتطلبات المادية في جسده، يكون قد تذوق حلاوة الكشف الأول، ولذة الخطوة الأولى، واذا ما شطّت الخطوات حينًا، فإنه يظل مشدودًا لنبض النفخة القابعة بدواخله، التي تحرض قدرته على التأمل في ذاته، وعجائب خلقته، فالعودة إلى المادة والركون إليها سيذكره ببدايته التي جبل منها، وعلة إيجاده السامية التي يعبر عنها الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة قائلًا: (ابتدأتني قبل أن أكون شيئًا مذكورًا) مستحضرًا في ذلك قوله تعالى: (**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورًا**) (الدهر:١) ويفسره الإمام الصادق عليه السلام بأن الإنسان (كان مقدّرًا غير مذكور)[٣].

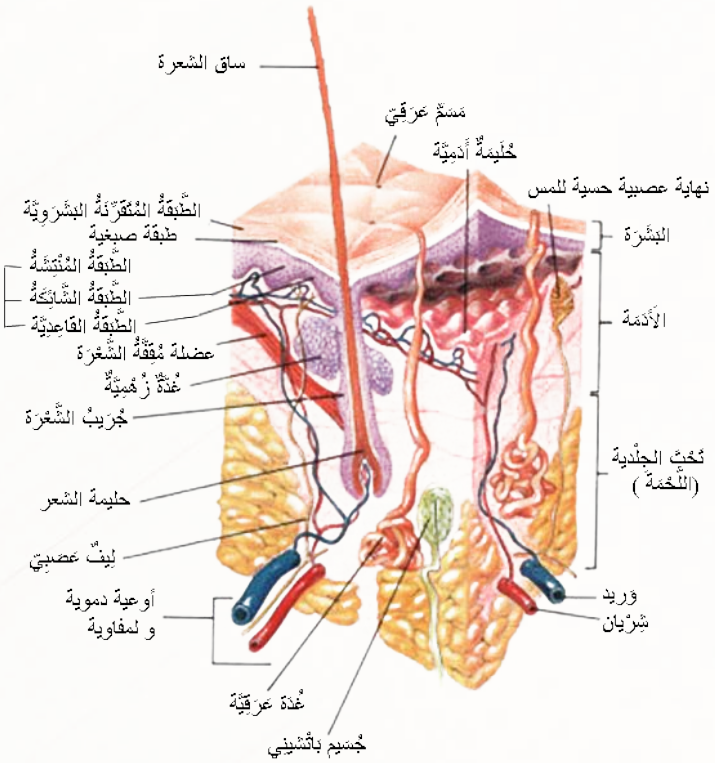

ويفصل الدعاء كيفية الإيجاد والخلق،

وهو من وجه آخر بعدٌ تأملي في كيفية الخلق ودلالته على قدرة الخالق؛ يقول ﷻ: (خلقتني من التراب، ثم أسكنتني الأصلاب، آمنًا لريب المنون واختلاف الدهور، فلم أزل ظاعنًا من صلب إلى رحم في تقادم الأيام الماضية والقرون الخالية). وهنا ذكر ﷻ أولًا مادة البدن (التراب)، لأنه العنصر الأغلب في تكوين بدن الإنسان، ولم يذكر سائر العناصر الأخرى التي اشتركت مع التراب في تشكله، والغالب الثاني بعد التراب من العناصر هو الماء، وقد عبر القرآن الكريم عن هذين العنصرين بالطين المركب من التراب والماء. وعبّر عن طريقة تبدل الطين إلى النطفة، والنطفة إلى العلقة، بطريقة العطف بالأداة (ثم)، وعطف سائر التبدلات الأخرى بالفاء والواو العاطفتين؛ لأن التبدل الأول، كان من صورة البساطة في العنصر إلى الصورة الضعيفة المركبة المعدنية، أما تبدل النطفة إلى العلقة فيجسد ترقيها إلى عالم النباتية والنماء، وستكون سائر التبدلات الأخرى من صيرورتها مضغة وعظماً، ثم إكساء العظم لحماً، كلها من مراتب عالم واحد، هو عالم النبات. وبعد هذا الترتيب المتحقق يعطف القرآن الكريم ترقيها إلى عالم الحياة بـ(ثم)[٤].

إنّ تفكيرًا علميًا كهذا في طبيعة عملية الخلق وكيفيتها والغاية منها، يستلزم، بلا شك، الإنصات لكل محاولات الإجابة الأخرى التي وضعتها الأديان الأخرى، فضلًا عن المحاولات غير السماوية التي قام بها الإنسان من خلال النظريات الفلسفية في ذلك والنظر في مناهجها ومقولاتها وإجراءاتها العلمية، وكذلك الأفكار والمفاهيم والنظريات العلمية الأخرى مهما اختلفت والمقارنة ما بين هذه الأجوبة بطريقة واعية ودقيقة. ولكن السؤال هنا: إلى أيّ حدٍّ يمكن للمتأمل والمتفكر أن يحافظ على جذوة هذا السعي إلى المعرفة متقدة في دواخله، ولا يسمح لأفكار طارئة تقول بالإلحاد ونكران الأجوبة السماوية ودعواتها إلى التفكر والتأمل العلمي الواعي، بأن تزاحم سعيه ذاك وتقلل من فاعليته؟ فالسعي إلى المعرفة الشأن الأول للإنسان العاقل الحكيم في مختلف الأزمنة والأمكنة الذي هو موضع عنايته، ذلك أنه يدرك أن الأفكار الطارئة التي تغالط الواقع وطبيعة تركيبه ووجوده، لها زمنها الافتراضي الذي سينتهي، وأنّ موقفَ التسليم بصحة مضامينها وتبنيها من غير تمحيص وتفكّر ودراية أمرٌ خاطئ. ولذا كان من أهم الأمور التي حرصت الأديان السماوية في الحفاظ عليها ماثلة في فكر الإنسان ووجوده، هو ضرورة سريان الدين في كل مفاصل حياته وجوانبها المختلفة، وانعكاسه في جميع أنشطته وممارساته، فالدين لا يترك جانبًا مما يتعلق بوجود الإنسان إلّا وكان له فيه رأي ومنهج وضابط ينظم العلاقة ويحدد كيفيتها، فلا يقتصر دوره على تنظيم صلته بالخالق جل وعلا، فهو يدخل

إلى جميع تفاصيل الحياة المحيطة به ابتداءً بأخيه الإنسان أيًّا كان عرقه ولونه وثقافته، وانتهاءً بأصغر موجود وأدقه في الحياة.

إنّ السؤال الذي وقف عنده الأعرابي الذي ذكرنا في السطور الأولى من هذه المقالة وأجاب عنه، مازال يستوقف الإنسان المعاصر في فضاء تكنولوجي معقد متخم بالنظريات والأفكار والأجوبة، فأهميته تتأتى من مركزيته في الوجود، من هنا لا نستغرب أن نسمع من فيلسوف أوربي كبير كـ (وينوود ريد) تصريحه بانشغاله الدائم بهذا السؤال الكوني المهم، إذ يقول: (إنه لأمر هام يدعونا إلى التفكير فيما إذا كانت لنا علاقة شخصية مع الإله؟ وهل هناك عالم غير عالمنا هذا؟ وهل سنلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم؟ إن هذا السؤال ليس بعقدة فلسفية عظيمة فحسب، وإنما هو في نفس الوقت أعظم أسئلتنا العلمية أيضًا. إنه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة، فحياتنا الراهنة قصيرة جدًا، أفراحها عادية موقوته، إذ أننا عندما نظفر بما نحلم به، يفاجئنا الموت)، ويشترك معه آخر في الانشغال ذاته، فيقول روبرت هورتون كاميرون :(إن اعتقادي في الله يقوم على حرية الإرادة وذكائها؛ الإرادة الإنسانية التي وصفت بأنها العملية الشعورية الكاملة التي تقود الإنسان إلى اتخاذ قرار معين، الإرادة التي هي أحد الأقسام الكبرى التي يقسم علماء النفس قوى العقل إليها (القوتان الأخريان هما الإدراك والشعور)، فأنا عندما أرغب أو أريد شيئًا معينًا يتخذ عقلي قرارًا به، وإرادتي هي التي تنفذه)[٥].

اختلفتْ مفردات الفضاءين؛ فضاء الأعرابي وفضاء فيلسوف القرن العشرين، ومع هذا تماثلتْ طرق الاستدلال على الخالق جلّ وعلا، وكان ذلك عبر تأمل نظام الخلق أو إرادته، والإنصات لصوته الواضح الجهير. لن يبقى بعد هذا مجال تبتعد فيه الخطوات خارج هذا النظام، لأنه في داخل الإنسان نفسه، إذ تتجلى قوة الخالق وبديع صنعه، وأحديته لا شريك له. ولله در أبي العتاهية حين قال:

فيا عجبًا كيفَ يُعصى الإله
أم كيفَ يَجحدُهُ الجاحِدُ
ولله في كُلِّ تَحريكَةٍ
وَفي كُلِّ تَسْكينَةٍ شاهِدُ
وفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ
تَدلُّ على أنَّهُ واحِدُ[٦]

---

١) ينظر: مقالات تأسيسية في الفكر الإسلامي: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، ص ١٢٨وما بعدها.

٢) ينظر: شبهات وردود حول القرآن الكريم: محمد هادي عرفه، ص٢٢- ٢٥، ٢٣.

٣) أصول الكافي: ١/ ١٤٧.

٤) ينظر: مباني وأصول العرفان الشيعي، قراءة في دعاء عرفة للإمام الحسين بن علي عليه السلام: ص١٢٥.

٥) الإنسان ذاته هو الدليل: روبرت هورتون كاميرون، ضمن كتاب: الله يتجلى في عصر العلم: تحرير: جون كلوفر مونسما، ص: ١٢٧.

٦) شعب الإيمان/ البيهقي /ج١ص١٣٠.

في الجمال والتجمل

* قال الإمام عليّ عليه السلام : إنّ اللهَ جميل يحبّ الجمال، ويحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده.

* وقال عليه السلام : ليتزيّن أحدكم لأخيه المسلم كما يتزيّن للغريب الَّذي يحبّ أن يراه في أحسن الهيئة.

* وقال الإمام الصّادق عليه السلام : إنّ اللهَ عزّ وجلّ يحبّ الجمال والتّجمّل ويبغض البؤس والتّباؤس .

* وقال عليه السلام: إلبس وتجمّل فانّ اللهَ جميل يحبّ الجمال وليكن من حلال.

* وقال عليه السلام : ثلاثة أشياء لا يحاسب الله عليها المؤمن : طعام يأكله، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونه وتحصّن فرجه.

* وقال عليه السلام : إذا أنعم الله على عبد بنعمة أحبّ أن يراها عليه لأنّه جميل يحبّ الجمال.

وقال عليه السلام : إنّ اللهَ يحبّ الجمال والتّجمّل ويبغض البؤس والتّباؤس، فإنّ الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحبّ أن يرى عليه أثرها، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : ينظّف ثوبه، ويطيّب ريحه، ويجصّص داره، ويكنس أفنيته حتّى أنّ السّراج قبل مغيب الشّمس ينفي الفقر ويزيد في الرّزق .

(هداية الأمة/ الحر العاملي/ ج٢ص١١٢)

معرفة الخالق وتوحيده في نهج البلاغة

دقائق الفكر وإشراق البيان

أ.م.د . حسن حميد الفياض

جامعة الكوفة - كلية التربية الأساسية

ينابيع عدُّ كتاب نهج البلاغة مَعينًا ثرًّا للناهلين من علياء الكلمة، وموردًا عذبًا للظامئين إلى منابع المعرفة، وبحرًا زخارًّا للخائضين إلى غوامض الفكر وبواطن العلم، وهو بحق كما قيل فيه (دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين)[1]... وكيف لا يكون ذلك ومنشئه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي امتاز بكل فضيلة، ينحدر منه السيل ولا يرقى إليه الطير، وهو بحق باب علم النبي صلى الله عليه وآله ووصيه.

وقد اشتمل نهج البلاغة على أدلة في ردّ مزاعم الملحدين وشبههم، وكلام في معرفة الخالق، وخطب في التوحيد، مع علو الكعب في البلاغة يعزّ نظيرها من غير هذا المنبع.

منها قوله عليه السلام: (زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ وَ لَا لاخْتِلَاف صُوَرِهِمْ صَانِعٌ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى حُجَّة فِيمَا ادَّعَوْا وَلَا تَحْقِيق لِمَا أَوْعَوْا وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ)[2].

يأتي هذا النص في ردّ مزاعم الملحدين باستعمال إطار نظري قائم على النظر إلى شواهد الخلق التي أقامها الله سبحانه دليلًا على وجوده في قوله عليه السلام قبل هذا المقطع (فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْس وَالْقَمَر وَالنَّبَات وَالشَّجَر وَالْمَاء وَالْحَجَر وَاخْتِلَاف هَذَا اللَّيْل وَالنَّهَار وَتَفَجُّر هَذه الْبِحَار وَكَثْرَة هَذه الْجِبَال وَطُول هَذه الْقِلَال وَتَفَرُّق هَذه اللُّغَات وَالْأَلْسُن الْمُخْتَلِفَات، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ وَجَحَدَ الْمُدَبِّر).

وقد جاء استعمال الإمام عليه السلام السجع ليحقق وظيفة دلالية تتعاشق مع البعد الصوتي لإحداث أثر فاعل في المتلقي،

ويتحقق ذلك بهيئة الفاصلة وصوتها، وتتركز بؤرة النص في الجملتين الأخيرتين اللتين تنتهيان بالسجعتين (بانٍ ... جانٍ)، فقد كشف فيهما عن دليل تقوم عليه عموم محاولات إثبات وجود الصانع –جل شأنه- وهو دليل الأثر والمؤثر، وقد نسج هذا الدليل بأسلوب الاستفهام الإنكاري في بنية جمعت في دلالتها بين طرفين جامعين لكل أبعاد الأثر والمؤثر على النحو الآتي:

وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ ← كل أثر عظيم له مؤثر.

أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ ← كل أثر حقير له مؤثر.

وكان التنكير الظاهر في الجملتين دالًا على العموم، فلا مناص من الاعتراف بوجود الخالق لهذا الكون ما دام لا ينفك أثر جليلًا كان أم حقيرًا عن مؤثره.

وقد جاءت فاصلتا السجعتين (بانٍ، جانٍ) على هيئة اسم الفاعل المنقوص في ختام جملتي الاستفهام الإنكاري للكشف عن اضطرار الأثر إلى مؤثره وإن كان غائبًا عن المشاهدة؛ لاستشعار الحاجة إليه، فجاء تعويض الحرف المنقوص بالتنوين دلالة على حضور الغائب الذي زعموا عدم وجوده لتناهي حسّهم دونه.

لقد كان اختيار الأصوات بصفاتها ومقاطعها في فواصل السجع مترابطًا مع نسج الدلالة المقصودة في الاستدلال على وجود الخالق سبحانه ولم تقف عند حد إحداث الأثر الفني والاستمتاع به.

ومنها ما سيتبين لنا من خلال خطبة له عليه السلام يحمد الله فيها ويصف خلقًا من الحيوان[٣]، فقد ورد في هذا النص خمس فقرات متتابعات متسلسلات،

انتقل فيها الخطاب متدرجًا من العموم إلى الخصوص، ومن السعة والشمول إلى الدقة والتقييد، ومن الغيبة إلى الحضور في التفات يجعل الوعي حاضرًا والفكر عاملًا للخلوص إلى النتيجة المقصودة التي قاد العقول إليها، فقد نظم أمير المؤمنين عليه السلام خطابه بذهن وقاد، ودقة عالية، وبناء متين ليهيئ المتلقي للانتقال في فكره برشاقة وسلاسة إلى ما قاده إليه، وقد تمثل هذا البناء على النحو الآتي:

بدأ المقطع الأول من النص بقوله: (وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ...) إذ أسند الفعل الماضي إلى جماعة الغائبين، وجعل مورد التفكير عامًا (فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ ...)، ليكون ناتج الدلالة (لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)، بيد أن هذه الثمرة من التفكر لا تجنى لأنه (الْقُلُوبُ عَلِيلَةٌ وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ)، في إشارة جميلة إلى ضرورة إعمال الفكر للوصول إلى الغاية التي سيقود المتلقي إليها.

إما المقطع الثاني فبدأه بالتفات من الماضي إلى المضارع لجماعة الغائبين الغافلين مع التحضيض (أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ...)، وكان مورد النظر أخص من المقطع الأول (إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ)، فاستعمال الفعل (يَنْظُرُونَ) بمادته وهيأته أوفق مع السياق من استعمال الأفعال الدالة على التفكر، لأن المورد يدعو إلى مشاهدة الخلق والتأمل فيه، ويخص صغار الخلق لأنه أدعى للعجب والدهشة، وليهيئ المتلقي إلى الانتقال للمقطع الآتي.

بدأ المقطع الثالث بالالتفات من الغيبة إلى الحضور صادمًا لغفلة المتلقين بالخطاب المباشر إلى جماعة الحاضرين (انْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ...)، وليكون مورد النظر أخص مما سبق (إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا لَا تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ

الْبَصَر وَلَا بِمُسْتَدْرَك الْفِكَر كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا وَصُبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا وَفِي وِرْدِهَا لِصَدَرِهَا مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا مَرْزُوقَةٌ بِوُفْقِهَا).

ليكشف عن ملاحظة دقيقة لحياة كائن حي لا يأبه له الناس، ولا يقيمون له وزنًا، فيدعوهم بالخطاب المباشر إلى النظر والتأمل والاعتبار ليكون ناتج الدلالة (لَا يُغْفِلُهَا الْمَنَّانُ وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ)، لينهي في هذا المقطع مرحلة النظر والتأمل، ويفتح الباب أما التفكر في المقطع الرابع.

يبدأ هذا المقطع بالتفات ثالث من جماعة المخاطبين إلى المخاطب المفرد باستعمال الفعل (وَلَوْ فَكَّرْتَ ...) المسند إلى تاء الفاعل المفتوحة، ليفسح المجال أمام المتلقي لإعمال فكره من دون إكراه بدلالة أسلوب الشرط غير الجازم (لو)، وليقوده برفق إلى مورد التفكر (فِي مَجَارِي أَكْلِهَا فِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا)،وهو ما لا يلحظ ببصر، ولا ينال إلّا بالتفكر لذا ناسبه استعمال الفعل (فَكَّرْتَ)؛ لكون المورد أكثر خصوصية ودقة من كل ما مر سابقًا، ليصل به إلى جواب الشرط (لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا)، وليقود المتلقي إلى نتيجة الدلالة للمقاطع الأربعة السابقة (فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ)، وليهيِّئه نفسيًّا وفكريًّا إلى تقبل الحقيقة الناصعة في المقطع الخامس، والتي تحتاج إلى إعمال الفكر.

فقد بدأ المقطع الخامس الذي هو ختام النص موضع البحث بتأكيد الحضور في ذهن المتلقي، وإدامة التفكر بعمق وتحقيق، متوسلًا إلى ذلك بأسلوب الشرط غير الجازم مع ما يتبعه من جملة الشرط (وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ)، ليؤشر إلى أن ناتج الدلالة في جواب الشرط يحتاج إلى أبعد من النظر والتأمل؛ لأنه قائم على القياس والاستنباط الناتجين عن عمق الفكر وقوة الربط، ليؤدي إلى (مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ)، ليعلن الغاية من التفكر في الخلق وهو الوصول إلى توحيد الخالق بعد أن قادت مشاهدة الخلق إلى معرفة الخالق، فالتوحيد نتيجة لا تنال إلّا بإعمال الفكر، وهو ما دعا الإمام عليه السلام إلى تعليل هذه النتيجة بقوله: (لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ).

لقد كشف لنا النص السابق بمقاطعه الخمسة عن تسلسل فكري متقن وتدرج أسلوبي رفيع في عرض موضوع الخطاب، بدأ من عموم النظر لينتهي إلى دقة الفكر، ولينقل المتلقي من الغفلة إلى الوصول للنتيجة المتوخاة بسلاسة وترابط، وليسجل علو كعب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بلاغة الخطاب، وتفرده في عرض دقائق الفكر وغوامض العلم بعرض أدبي رشيق، وأسلوب خطابي شيق.

---

١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٤/١.

٢) نهج البلاغة، صبحي الصالح، ٢٧١.

٣) المصدر نفسه ٢٧٠-٢٧١.

قراءة في كتاب
(المصمم الأعظم)
قراءة نقدية في كتاب التصميم العظيم لستيفن هوكنج
تأليف الدكتور: حسن بن أحمد اللواتي

سكرتير التحرير

موضوع هذا الكتاب يدور حول رؤى لعالم الفيزياء الشهير (ستيفن هوكنج) وزميله الفيزيائي أيضًا (ليوناردو ملودينو) حول الكون ومسألة الخلق والوجود، وقد حاولا في هذا الكتاب ومن خلال طرح مجموعة أسئلة من الفكر من قبيل: لماذا هناك وجود؟ ولماذا وجدنا؟ وغيرها، دراسة القوانين العلمية وتاريخها التي حاولت تفسير هذا الواقع والوجود، وأن يقدما وعبر قراءة القوانين العلمية المكتشفة طرحًا جديدًا لتفسير نشأة العالم، بالرغم من أنّ مجال العالمِيْن المذكورين وتخصصهما في العلوم الطبيعية والفيزياء تحديدًا، فاستندا إلى مقدمات وقوانين علمية في ذلك المجال إلّا أنّهما خرجا باستنتاجات تتعلق بمجال علمي آخر وهو المجال الفلسفي.

الكتاب يقع في قسمين، يستعرض القسم الأول منه مضمون كتاب التصميم العظيم وذلك عبر ثمانية فصول تنتهي في (ص١٠٢) من الكتاب، ليبدأ القسم الثاني من الكتاب بعنوان (القراءة النقدية) مشيرين إلى نقاط الضعف في كلامه ونتائجه من خلال فصول عقدها المؤلف

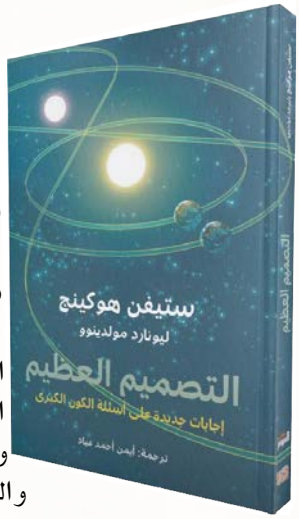

بلغت سبعة تنتهي في (ص١٧٤)، ثم بعد ذلك تبدأ تعليقات من (ص١٧٥) فيها عناوين لمحاور فلسفية علق بها (محمد رضا اللواتي) في آخر الكتاب حول معنى الفلسفة وموضوعها ودراسة الحركة والزمان ونشوء البعد اللامادي، وذكر من براهين إثبات وجود الله تعالى برهان الصديقين، وبهذا تنتهي مادة الكتاب في (٢٦٥ص).

وسنحاول في هذه الأوراق المختصرة نقل بعض الفقرات المهمة للقارئ على لسان كاتبه مختارة من بعض فصوله مع بعض التعليقات، ومن باب التذكير نشير للقارئ:

منذ أن بزغ فجر التأريخ باختراع الكتابة، حاول الإنسان أن يدون أفكاره، فالإنسان بطبيعته مفكر بالفطرة يحاول أن يتأمل بالأشياء المحيطة به مدونًا الحوادث وتأملاته ومظاهر الوجود الخارجي لكي يجد تفسيرًا لظواهر الطبيعة. ومن بين ألوان التفكير البشري ما يتعلق بمعرفة لغز الوجود والغاية من هذا الوجود، أو ما يسمى بالتفكير الفلسفي الذي ظهرت بدايته الأولى مقرونًا بالعقائد الدينية في الشرق، حيث يتفق أغلب المؤرخين[1] في أن نشأة الفلسفة تعود إلى اليونان وهناك رأي آخر يقول أن هناك أفكارًا تأملية فلسفية كانت في بدايتها ترتبط بحضارات الشرق القديمة ومنها حضارة وادي الرافدين ووادي النيل وحضارة الهند، فامتزج هذا اللون من التفكير بالعقائد الدينية للحضارات الأولى، ثم توالت بعد ذلك الحضارات البشرية مثل ما دونه أهل اليونان التي تأثرت نوعًا ما بالثقافات الشرقية[2]. ثم عند ظهور نور الوحي في شبه الجزيرة العربية وولادة نبي الإسلام الأعظم صلى الله عليه وآله وبعثته وهجرته حين حمل رسالة الهداية إلى العالمين فدعا الناس في أول خطوة إلى تعلم العلم والمعرفة وكانت أولى الآيات الناطقة (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**) (العلق:٤، ١) وبظهور الإسلام أضيء مشعل العلم والمعرفة والحكمة في الشرق الأوسط فانهمك المسلمون في تعلم الفنون والعلوم المختلفة من جميع أرجاء العالم، وقدم الإسلام نظرياته في حل مشاكل الإنسان والتي أهمها حياته في هذه النشأة الدنيوية، فقدم نظامًا متكاملًا من وحي القرآن والسنة النبوية المطهرة ومن تعاليم أهل البيت عليهم السلام. فرسم للبشرية معالم فلسفتهم وحياتهم في الدارين، وبين حدود عالم الدنيا وإمكاناته المحدودة المرتبطة بالزمان والمكان، وأن هناك عالمًا أوسع وأشرف تتجلى فيه الأنوار لمن آمن وعمل صالحًا واتقى وسَلِم الناس من يده ولسانه وحافظ على طهارة باطنه وروحه بالالتزام بالشريعة المقدسة التي هي الطريق الوحيد للوصول إلى ذلك العالم العلوي والفوز برضوان الله تعالى في ذلك العالم الذي هو بحد ذاته يختلف عن هذه النشأة المادية التي اختلف فيها العلماء، أي في تفسيرها ومعرفة حقيقة الإنسان، رغم التطور العلمي الحاصل في أوربا والغرب، فاقتصرت نظرة الغرب على أن الإنسان بدن بلا روح وأبعدوا الجانب

المعنوي من حياة الإنسان وهو الأهم، ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي بدأ عصر جديد في أوربا رافقه تحول ثقافي وتغيير أساسي في القناعات، ولهذا سمي بعصر النهضة، ومن النتائج السيئة لهذا العصر ضعف أسس الإيمان بالغيب والنفور من الدراسات العقلية وما وراء عالم الطبيعة (الميتافزيقيا)، وبعبارة أخرى كان هناك انحطاط للدين والفلسفة، مما أدى إلى انهيار الأسس الفكرية والعقائدية، وأشاع اتجاهًا خطيرًا من الشك وعدم الاطمئنان بسبب التطور الحاصل للمعارف العلمية التي كان ينتظر منها إعادة صياغة الواقع المادي وتفسير الظواهر الطبيعية، والخروج بنظريات جديدة تساعد الإنسان على فهم الطبيعة أكثر، وهذا ما نرى آثاره في الكتاب حيث ورد في (ص١٤) على لسان الكاتب: (إننا نعيش لبرهة وجيزة من الزمن وفي تلك البرهة الوجيزة نستعرض جزءًا صغيرًا جدًا من الكون، ولكن لحب الاستطلاع فينا فنحن نبحث عن إجابات لأسئلة عديدة، كيف نفهم العالم الذي نعيش فيه؟ كيف يتصرف الكون؟ ما هي طبيعة الواقع؟ من أين أتى كل هذا؟ هل احتاج الكون إلى خالق؟ إن معظمنا لا يصرف معظم أوقاته للبحث عن إجابات لتلك الأسئلة، ولكن معظمنا ابتلي بها في وقت من أوقات حياته)، ذكر ذلك في بداية الفصل الأول المعنون (لغز الوجود) ثم يقول في (ص١٤): (في العادة فإن هذه الأسئلة، أسئلة فلسفية، ولكن الفلسفة ميتة لأنها لم تتواكب مع التطورات الحديثة في العلوم وبالخصوص في علوم الفيزياء، وعليه فقد حمل علماء الطبيعة شعلة الاستكشافات والنظريات الحديثة).

إذن فالكاتب يحاول استبدال البحث الفلسفي بالبحث العلمي للإجابة عن تلك الأسئلة التي هي فلسفية أولًا، فهو مع ذلك قد أمات الفلسفة، وإذا أردنا أن نكون موضوعيين أكثر لقلنا إن تلك الأسئلة لها وجهان، وجه يتعلق بالعلوم الطبيعية ووجه آخر يتعلق بالبحث العقلي والبراهين الفلسفية.

نعم لأن البحث عن الكون والعالم، ومِمَّ يتكون هو؟ أمر فيزيائي، ولكن البحث عن احتياج الكون إلى العلة الموجدة له هو بحث فلسفي.

ويقول أيضًا في نهاية الفصل الأول: (إننا وجدنا في تاريخ العلم سلسلة من النظريات والنماذج العلمية التي كانت تتحسَّن مع تغيرها في وصفها للواقع، فمن نظريات أفلاطون إلى نظريات الفيزياء الكلاسيكية لنيوتن إلى نظريات الفيزياء الكمية الحديثة، وعليه فمن حقنا أن نسأل: هل ستصل تلك السلسلة من النظريات إلى نهاية قصوى ونظرية عظمى لتفسير الظواهر الكونية بحيث تشمل كل القوى الطبيعية؟ ... أو أننا سنستمر للأبد في اكتشاف نظريات أفضل مما لدينا ...) ص١٦ - ١٧.

إن المقصود من الفلسفة هي المبحث المختص بدراسة موجودات العالم وتفسيره لتلك الموجودات بنحو كيفية وجودها والبحث عن العلاقات بينها، وهي تنقسم إلى فلسفة مادية وفلسفة إلهية[٣].

أما الفلسفة المادية فهي تعتقد أن

وجود العالم ينحصر بعالم المادة والطبيعة وآثارها فقط فكل شيء موجود مادي وكل شيء ما وراء المادة فهو خيال.

أما على الضوء الفلسفة الإلهية فإن نظام الوجود لا يشمل المادة فقط والأمور المحسوسة، بل هنالك عوالم فوق المادة منزهة عن خواص المادة لا تطالها التغييرات الحاصلة في عالم الطبيعة، لقد وضع الماديون في فلسفتهم تجاه قضايا الكون أن يكون الحس والحواس هما مصدر المعرفة فاعتبروا الشيء غير المحسوس غير مشمول بدائرة العلم وإن عالم الغيب كوجوده تبارك وتعالى والوحي

والنبوة والمعاد ضربًا من الأساطير، في حين أن المعرفة الصحيحة تعتمد على الحس والمحسوسات وإدراك العقل وتحليلاته المنطقية، والقرآن الكريم ينتقد أساس التفكير الفلسفي المادي ويرد على الذين يتوهمون عدم وجود الله سبحانه استنادًا على أنه لو كان موجودًا لشاهدناه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

قال تعالى: (**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللّهَ جَهْرَةً**) (البقرة:٥٥)، ويرد عليهم قائلًا: (**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**) (الأنعام:١٠٣)، وعلى الرغم من أن سير المعلومات في الكتاب والإجابة حول تلك الأسئلة بقلم الكاتب كما أشرنا اتخذت اتجاهًا علميًا بحتًا انطلاقًا من دراسة تاريخ القوانين الفيزيائية والتي صاحبت الاكتشافات إلّا أن الكتاب لا يخلو من معلومات قيمة من حيث أن التطور العلمي كشف لنا عن أشياء وحقائق علمية مدهشة في أرجاء الكون، ونحن ننقل إليك بعضًا منها في الفصول الأخيرة من مادة الكتاب.

ورد في الفصل السادس والمعنون (اختيار كوننا): (تبدأ أهم أحداث القصة في العشرينات من القرن العشرين باكتشاف (إدوين هَابُل) لأمور أدت به إلى استنتاج بأن الكون في تمدد ... فإن التمدد الذي اكتشفه (هابل) ليس توسع الشيء في المكان، وإنما هو توسع المكان نفسه... فالمكان شيء مثل بقية الأشياء وهو عرضة للتمدد والتوسع مثل: البالون، وفي هذه

عالم الفيزياء الشهير ستيفن هوكينج يستعد للسفر إلى الفضاء الخارجي

الحالة فإن التوسع والتمدد الذي اكتشفه (هابل) هو عبارة عن توسع المكان حاملاً معه الأشياء التي فيه بعيدًا عن بعضها، وهنا يحضرني قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (الذاريات:٤٧)، ... وحينما نقول إن الكون (والفضاء) في توسع، فإننا بالملازمة نقول: إن الكون كان أصغر حجماً فيما مضى، وعلى ذلك لو تتبعنا الكون في الماضي لوجدناه أصغر حجماً بكثير عما هو عليه الآن، بل إننا نصل إلى لحظة يكون الكون كله فيها محوياً في حجم يساوي الصفر أو ما يسمى بلحظة الانفجار العظيم ... إن الانفجار لم يحدث في الكون، وإنما حدث الكون بحدوثه ... وطبقًا لنموذج الانفجار العظيم فإن الكون مرّ بمرحلة من التضخم والتوسع السريع الذي حدث خلال فترة بالغة الصغر... ولمن يجد لغة الأرقام عسيرة على الهضم فإننا نستطيع تشبيه الوضع له بتمدد عملة معدنية قطرها(١ سنتمتر) إلى مساحة تفوق الـ(١٠) ملايين مرة من مجرة درب التبانة ... لكن في الوقت ذاته فإن ظاهرة التوسع السريع فرضت مشكلة (على الأقل هكذا وصفوها) أمام بعض الفيزيائيين، فلكي يكون نموذج الانفجار العظيم/التوسع السريع قابلاً للعمل، فإننا نضطر لأن نفترض أن وضعية الكون في لحظة الصغر (ما قبل التوسع السريع) كانت حالة خاصة جدًا لا يمكن للصدفة وحدها أن تفسرها، ولولا تلك الوضعية الخاصة جدًا في لحظة الصغر في نشوء الكون لما استطعنا بناء نموذج الانفجار العظيم التوسع والسريع، ولعدنا بيدين خاليتين من جديد، وبالطبع ... إن هذا الطريق يتجه إلى نتيجة فلسفية فكرية بوجود مُصمّم وخالق للكون جعله بتلك الوضعية الخاصة جداً والتي أمكن من خلالها أن يحدث التوسع السريع للكون مع ماله من نتائج على نشوء المجرات والكواكب والحياة على الأرض، وحيث أن هوكنج يرغب في نتيجة مخالفة فإنه سيحاول عرض نظرية أخرى لتفسير تلك الحالة الخاصة ...) ص٨٢ - ٨٦.

وورد في الفصل السابع ص٩٢ والمعنون (المعجزة الظاهرية) في هذا الفصل يعرض لنا الكاتب عددًا من الأمور التي مكنت لنا من وجود الحياة على كوكب الأرض، فمع أن عدد المجرات والأنظمة النجمية والكواكب في الكون هائل وضخم فإن هناك شروطًا معينة يتطلب وجودها في النظام الكوكبي الذي يراد له أن يحتضن الحياة، وهذه الشروط نادرة جداً إلى درجة تدفعنا للاعتقاد بأنها صمّمت على يد مصمّم ذكي جدًا أراد للحياة أن تنشأ على هذا النظام الخاص، وبعبارة أخرى: فإن وجودنا على هذا النظام النادر الخاص معجزة تدفعنا إلى الاعتقاد بوجود إله مصمّم ذكي.

والعجيب في هذا الفصل أن الكاتب عرض بأمانة علمية ودقة بحثية جوانب الندرة في النظام الشمسي للأرض وعرض ذلك بدقة واختصار مذهلين يندر وجودهما في كتب أخرى، نذكر منها:

١ـ حوالي نصف عدد الأنظمة النجمية في الكون مكوّنة من نجمين أو أكثر ولو كانت الأرض تدور حول شمسين اثنتين بدلاً من واحدة فإن ذلك يستلزم أن تكون الأرض معرضة لحرارة عالية جداً في فترات وحرارة منخفضة جداً في فترات أخرى وكلا الأمرين لا يتلاءم مع نشوء الحياة على الأرض.

٢ـ كل الكائنات الحية مبنية من وحدات عضوية تحتوي على الكربون، إن نشوء حياة مبنية على الكربون يتطلب سلسلة من الأحداث الدقيقة التي تفضي إلى هذه النتيجة من نشوء الحياة الكربونية بعد مرحلة الانفجار العظيم، فنواة الكربون تتشكل من خلال اندماج نواتين من الهيدروجين معًا لتكوين نواة هيليوم وهي العملية التي تنتج الطاقة الحرارية الهائلة للنجم، ومن ثم اندماج نواتين من الهيليوم لتكون نواة البيريليوم، والخطوة الأخيرة هي اندماج نواة بيريليوم مع نواة هيليوم لتكوين نواة الكربون، والأمر ليس بهذه السهولة، وفي ذلك الوقت لم يكن أحد يعلم من الفيزياء النووية ما يكفي ليقدر مقدار تسلسل الأحداث وتوافقها التام كمًا ونوعًا وتوقيتًا لتنتج النتيجة المطلوبة أو المرغوبة من تكوّن الكربون، والذي هو حجر الزاوية في نشوء الحياة. ومعنى ذلك إن أي تغيير طفيف في القوانين الموجودة في كوننا سيؤدي إلى اختفاء الظروف المؤدية لوجودنا.

وبعبارة أخرى فإن ما يريد (هوكنج) قوله: هو أن القوى الأساسية للطبيعة يجب أن تكون في توازن خاص وذات طبيعة محددة لتنتج لنا الأحداث النادرة الخاصة التي من شأنها أن تولد لنا بيئة صالحة لنشوء وتطور الحياة كما نعلمها اليوم.

---

١) الفلسفة الإسلامية الدكتورة نظلة الجبوري ص٨ ـ والمنهج الجديد لتعليم الفلسفة للشيخ محمد تقي مصباح اليزدي ص١٢.

٢) المنهج الجديد ص١٣.

٣) انظر دعوة إلى التوحيد رسالة السيد الخميني (قد) إلى رئيس الاتحاد السوفيتي سابقًا ص٤٠.

توحيد المفضل

ينابيع روى المفضل بن عمر الجعفي في كتاب (التوحيد) عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

إنّ الشُكّاكَ جَهلُوا الأسبابَ والمعاني في الخِلقة، وقَصُرتْ أفهامهم عن تأمل الصواب، والحكمة فيما ذرأ[1] الباري جلّ قُدسه، وبرأ[2] من صنوف خَلْقه في البَر والبحر والسهل والوعر، فخرجوا بقَصْر عُلومهم إلى الجُحود، وبضَعْف بَصائرهم إلى التكذيب والعُنود، حتى أنكروا خَلْق الأشياء، وادعوا تكونها بالإهمال، لا صُنعةً فيها ولا تقدير، ولا حكمةً من مدبر ولا صانع، تعالى الله عما يصفون، وقاتلهم أنّى يُؤفكون[3]، فهم في ضَلالهم وغيِّهم وتجبُّرهم بمنزلة عميان دخلوا دارًا قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفُرشت بأحسن الفَرش وأفخره، وأُعدّ فيها ضُروبَ الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يُحتاج إليها ولا يُستغنى عنها، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير، وحكمةٍ من التدبير، فجعلوا يترددون فيها يمينًا وشمالًا، ويطوفون بيوتها إدبارًا وإقبالًا، محجوبةً أبصارهم عنها، لا يبصرون بُنية الدار، وما أُعدّ فيها، وربّما عَثَرَ بعضهم بالشيء الذي وضعَ موضعه، وأُعدّ للحاجة إليه، وهو جاهل للمعنى ولما أُعدّ ولماذا جُعل كذلك؟ فتذمّرَ وتَسَخّطَ وذَمّ الدار وبانيها. فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصُنعة. فإنهم لما غربت[4] أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى، فلا يفهمون ما هو عليه من اتقان خلقته، وحُسن صُنعته، وصواب هيئته. وربما وقف بعضهم على الشيء يجهل سببه، والأرب[5] فيه، فيسرع إلى ذمّه ووَصْفه بالإحالة والخطأ، كالذي أقدمت عليه المنانية[6] الكفرة، وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة، وأشباههم من أهل الضلال المعللين أنفسهم بالمحال[7] فيحق على من أنعمَ الله عليه بمعرفته، وهداه لدينه، ووفقه لتأمل التدبير في

صنعة الخلائق، والوقوف على ما خُلِقُوا له من لطيف التدبير وصواب التقدير، بالدلالة القائمة الدالّة صانعها أن يُكثر حمد الله مولاه على ذلك، ويرغب إليه في الثبات عليه والزيادة منه، فإنه جَلّ اسمه: (**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**) (إبراهيم:٧).

(تهيئة العالم وتأليف أجزائه)

يا مفضل أول العِبَر والدلالة على الباري جَلّ قُدسه، تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها[٨]، على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وخَبَرْتَهُ بعقلك، وجدته كالبيت المبني المُعَدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم مضيئة[٩]، كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه مُعَد، والإنسان كالمالك ذلك البيت، والمخول[١٠] جميع ما فيه. وضروب النبات مهيأة لمأربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه. ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملائمة، وأن الخالق له واحد، وهو الذي ألفه ونظمه بعضًا إلى بعض، جَلّ قُدسه وتعالى جَدّه وكَرُمَ وجهه ولا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون، وجَلّ وعَظُمَ عما ينتحله الملحدون.

(خلق الإنسان وتدبير الجنين في الرحم)

نبدأ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به . .

فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوبٌ في ظلمات ثلاث:

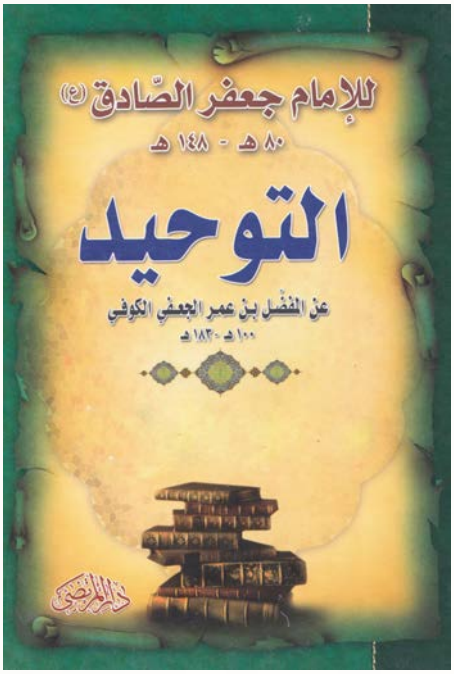

ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء، ولا دفع أذى. ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة، فإنه يجري من دم الحيض ما يغذوه، الماء والنبات، فلا يزال ذلك غذاؤه .

(كيفية ولادة الجنين وغذائه وطلوع أسنانه وبلوغه)

حتى إذا كَمُلَ خَلقُه واستحكم بدنُه وقوى أديمه[١١] مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق [١٢] بأمه فأزعجه أشدّ إزعاج وأعنفه حتى يولد، فإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمظ [١٣] وحرك شفتيه طلبًا

للرضاع، فهو يجد ثدي أمه كالأداوتين[١٤] المعلقتين لحاجته فلا يزال يتغذى باللبن، ما دام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء. حتى إذا يحرك، واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد ويقوى بدنه، طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس[١٥] ليمضغ[١٦] بها الطعام، فيلين عليه. ويسهل له اساغته، فلا يزال كذلك حتى يدرك، فإذا أدرك وكان ذَكَرًا طلع الشعر في وجهه، فكان ذلك علامة الذَكَر، وعِزّ الرجُل الذي يخرج به من جدة الصبا وشبه النساء. وإن كانت أنثى يبقى وجهها نقيًا من الشعر، لتبقى لها البهجة، والنضارة التي تحرك الرجل لما فيه دوام النسل وبقاؤه.

اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالإهمال ؟

---

١) ذرأ الله الخلق: خلقهم .
٢) برأه: خلقه من العدم .
٣) أي ينصرفون عن الحق .
٤) أي غابت .
٥) الأرب: بالفتح - المهارة أو الحاجة .
٦) أو المانوية: هم أصحاب الحكيم الفارسي ماني بن فاتك الذي ظهر في أيام سابور (ثاني ملوك الدولة الساسانية) ومذهبه مزيج من المجوسية والنصرانية، وقد تبعه في معتقده خلق كثير، وبقي قسم كبير منهم في الدور العباسي الأول ثم تسربت آراؤه إلى أوروبا وبقية الأقطار الآسيوية. وماني هذا كان راهبًا بحرّان ولد حوالي عام ٢١٥ م وقتله بعدئذ بهرام بن هرمز. أنظر في ذلك الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٨١ ومروج الذهب ج ١ ص ١٥٥، والفهرست ص ٤٥٦.
٧) أي الشاغلين أنفسهم عن طاعة ربهم بأمور يحكم العقل السليم باستحالتها .
٨) الضمير راجع إلى الأجزاء .
٩) في نسخة منضودة أي جعل بعضها فوق بعض فهي منضودة .
١٠) من التخويل وهو الاعطاء والتمليك .
١١) الأديم: الجلد المدبوغ .
١٢) الطلق (بسكون الثاني) وجع الولادة .
١٣) تلمظ: إذا أخرج لسانه فمسح به شفتيه .
١٤) الإداوة: بكسر ففتح - إناء صغير من جلد يتخذ للماء، جمعه أداوي .
١٥) الطواحن: هي الأضراس، وتطلق الأضراس غالبا على المآخير والأسنان على المقاديم، كما هو الظاهر هنا، وإن لم يفرق اللغويون بينهما .
١٦) مضغ الطعام: لاكه بلسانه .

نهاية الملف

من شعر الحكمة

قال المتنبي:

بقدر الكد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلى سهر الليالي
تروم العزّ ثمّ تنام ليلا ... يغوص البحر من طلب الآلي

وقال قابوس الديلمي:

الدهر يومان ذا أمنٌ وذا حذرُ ... والعيش شطران ذا صفوٌ وذا كدرُ
قل للذي بصروف الدهر عيَّرنا ... هل عاند الدهر إلّا من له خطرُ
أما ترى الريح إن هبت عواصفها ... فليس يضعف إلّا ما هو الشجرُ؟
أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ ... وتستقر بأقصى قعرهِ الدُررُ؟

وقال أبو القاسم المغربي:

ونفسك فُز بها إن خِفتَ ضَيمًا ... وخلِّ الدار تندبُ من بكاها
فإنك واجدٌ أرضًا بأرضٍ ... ولست بواجدٍ نفسًا سواها

وقال شاعر:

وما من كاتب إلّا سيفنى ... ويُبقي الدهرُ ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك يوم القيامة أن تراه

الغذاء ...وقاية ...ودواء
الرمـــان

وردت روايـات كثيـرة تحـث علـى تنـاول الرمـان، نذكـر بعضـاً منهـا:

* عـن النبـي صلى الله عليه وآله قـال : الرمان سـيد الفاكهـة. ومـن أكل رمانـة أغضـب شـيطانه أربعيـن صباحًـا.

* عـن أميـر المؤمنيـن عليه السلام قـال : كلـوا الرمـان بشـحمه فإنـه دبـاغ المعـدة.

* وعـن الإمـام الصـادق عليه السلام قـال : قـال رسـول اللّه صلى الله عليه وآله : مـا مـن رمّانة إلا وفيهـا حبـة مـن رمّـان الجنـة.

* وقـد ورد مـن إمـلاء الشـيخ الطوسـي : أطعمـوا صبيانكـم الرمـان، فإنـه أسـرع لألسـنتهم . (مـكارم الأخلاق/الطبرسـي/ص١٠٧)

الرمـان : هـو أحـد أهـم الفواكـه علـى الإطـلاق لاحتوائـه علـى العديـد مـن المركبـات الغذائيـة

الهامـة، ويعتبـر الرمـان أحـد الفواكه القليلـة التـي ذكـرت فـي القـرآن الكريـم ممـا يـدل علـى أهميتـه.

فقـد أكـدت العديـد مـن الأبحـاث أن الرمـان يعمـل علـى عـلاج مجموعـة واسـعة مـن الأمـراض. لاحتوائـه علـى مضـادات الأكسـدة، إذ يحتـوي علـى ثلاثـة أضعـاف

القيمة من الشاي الأخضر. فقد أظهرت العديد من الأبحاث دور الرمان في الوقاية من السرطان. وأنه يعمل على قتل وتثبيط نمو الخلايا السرطانية. كما أثبتت الدراسات والأبحاث أن للرمان فوائد كثيرة للمرأة الحامل وجنينها، وأيضًا لخفض الإصابة بهشاشة العظام، وكذلك تقوية الذاكرة، وأن عصير الرمان يساهم في منع التدهور في مرض الزهايمر، ويعمل أيضًا على خفض الكولسترول بالدم، وينصح الأطباء بتناول عصير الرمان الخالي من السكر حيث أن هذا يعضد من فوائده للقلب. ويقلل من مخاطر مرض السكري بالإضافة إلى مخاطر الإصابة بالأمراض المصاحبة للسكر مثل تصلب الشرايين. وأن تناول الرمان قد يساهم في خفض ضغط الدم المرتفع، كما أن الرمان يعد واحدًا من المطهرات الطبيعية للكبد حيث أنه ينقي الكبد والدم والأمعاء، ويساعد أيضًا على القضاء على الكرش بالبطن، ويعد أفضل طعام للتنحيف وإنقاص الوزن... وفوائد أخرى كثيرة.

حيث يفضل الأطباء أن يؤكل الرمان مع الأغشية البيضاء التي بين البذور .

واختلفوا !! في تاريخ وفاة سيد الجميع صلى الله عليه وآله بين شهري صفر وربيع

طالب علي الشرقي

ينابيع

ليس ثمة من خلاف في كون الرسول الأعظم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله هو خير خلق الله قاطبة، وقد أقرَّ بذلك القاصي والداني، وشمل ذلك أصحاب الديانات ومن لا يدينون بدين. إنّه أعظم عظماء البشرية وأشرف الأنبياء والمرسلين، منقذ الإنسانية من الجهالة، الهادي المتفرّد باقتران اسمه الشريف باسم الله جل جلاله، يردد اسمَه يوميًا ولخمس مرّات في اليوم في الأذان والإقامة والتشهد أكثرُ من مليار مسلم في أنحاء المعمورة.

ولقد تبارى الوصّافون في ذكر صفاته الخِلقية والخُلقية والسلوكية حتى الدقائق والمتفرقات، والتي لم يفعلوها مع غيره من الأنبياء والمرسلين والملوك والحاكمين والناس أجمعين.

وخير من وصف فأوجز الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أبيض اللون مشربًا حمرة، أدعج العين، سبط الشعر، كث اللحية، سهل الخد، ذا وفرة، دقيق المسرّبة كأنَّ

عنقه أبريق فضة، له شعر من لبته إلى سرّته يجري كالقضيب ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، شثن الكف والقدم، إذا مشى كأنما ينحدر من صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، كأن عرَقُه في وجهه اللؤلؤ، ولَريحُ عرقِه أطيب من المسك الأذفر، ليس بالقصير ولا بالطويل..[1].

وقد أحصى المسلمون لرسول الله ﷺ جُلّ حركاته وسكناته ومعاناته والكثير الكثير من شريف سنته ومفردات حياته. ومن ذلك ما ذكره محمد بن سعد في كتابه (الطبقات الكبير) بادئًا بصفة كلامه ﷺ: كان لا يسرُد سردكم هذا، يتكلم بكلام فصل يحفظه من يسمعه، وفي صفة مشيه: إنه كان لا يلتفت إذا مشى ولا أحد أسرع منه ﷺ في مشيه كأنَّ الأرض تطوى له، وفي كيفية أكله: إنه كان لا يأكل متكئًا وكان ﷺ يقول: آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد، وفي ذكر محاسن أخلاقه ﷺ قال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما رأيته قط أدنى ركبتيه من ركبة جليسه، ولا صافحه إنسان فنزع يده من يده حتى يكون هو الذي يفارقه، ولا قاومه إنسان فانصرف عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، ولا أصغى إليه رجل فنحّى رأسه حتى يكون هو يتنحّى عنه ...[2].

وذكر ابن شهر آشوب المازندراني جملة من صفات رسول الله ﷺ فقال: كان النبي قبل المبعث موصوفًا بعشرين خصلة من خصال الأنبياء، لو انفرد واحدٌ بأحدها لدل على جلاله، فكيف مَن اجتمعت فيه؟ كان أمينًا صادقًا حاذقًا أصيلًا نبيلًا فصيحًا عاقلًا فاضلًا عابدًا زاهدًا سخيًا قانعًا متواضعًا حليمًا رحيمًا غيورًا صبورًا موافقًا مرافقًا لم يخالط منجّمًا ولا كاهنًا ولا عيّافًا؛ وكان فيه خصال الضعفاء، ومن كان فيه بعضها لا ينتظم أمره، كان يتيمًا فقيرًا ضعيفًا وحيدًا غريبًا بلا حصار ولا شوكة، كثير الأعداء؛ كما كان ثابتًا في الشدائد وهو مطلوب وصابرًا على البأساء والضراء وهو مكروب محروب، وكان زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة[3].

وذكر جوانب من معجزاته وآثار تصرّفاته، ولم يترك جزءًا من بدنه إلّا وسجل له فضيلة وتفردًا، فبدأ بطيب ريحه، وظله الذي لا يقع على الأرض وقامته التي لا تدانيها قامة، ورأسه الذي تظلّه سحابة من الشمس، وعينه التي يبصر بها على جميع الجهات، وأنفه، وفمه، ولسانه، وأذنه، وظهره، وبطنه، وقلبه، وفخذه، ورجلاه، وقوّته ..[4].

وأمعن آخرون في ذكر ما يمتُ إليه ﷺ بصِلة، فذكروا ثيابه وفراشه وفراش مصلاّه، ونقش خاتمه، ونعاله، وخفه، وسواكه، ومشط شعره، ومكحلته، ومرآته، وقدحه؛ وذكروا سيوفه ودرعه وترسه والرماح والخيل والدواب، وخدمه ومواليه، وحُجَر زوجاته ...

أليس من الغريب والغريب جدًا أن يختلفوا في تحديد يوم وفاته ﷺ وهو أعظم حدث وأهم أمر تشهده الساحة العربية بل الإنسانية، ألَم يكن بينهم من يحسن الكتابة وقد كتبوا القرآن المجيد في عهد النبي ﷺ؟ وهل فقدوا القدرة على التذكر والحفظ وقد حفظوا المطوّلات من القصائد والخطب والمراسلات؟ أليس بينهم من لبثوا أحياء بعد رسول الله ﷺ وقد شهدوا جنازته؟ وهل للسلطات الحاكمة مصلحة في ذلك الاختلاف؟

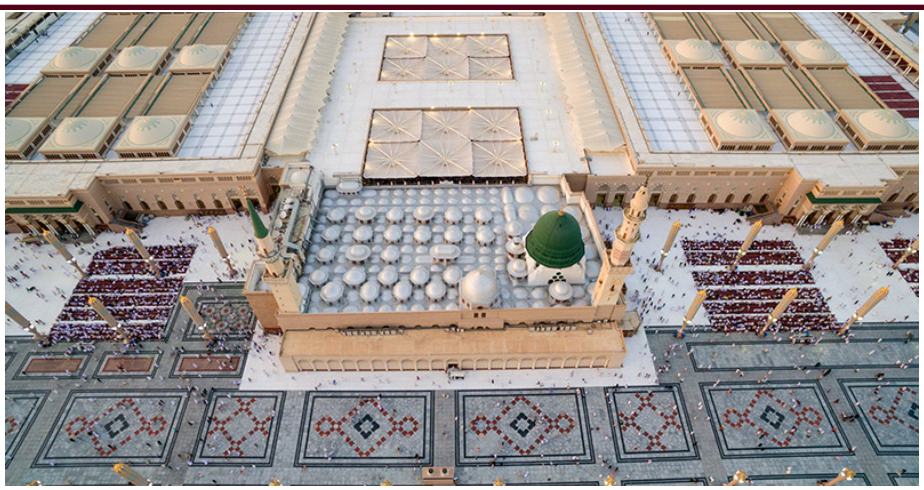

نعم: لو اختلفوا في تاريخ ولادته فلا لوم ولا استغراب في ذلك، فلم يكن شخص (محمد بن عبدالله بن عبد المطلب) إبان ولادته أكثر من يتيم فقير محسوب على العامّة، ثم إنّ مبدأ تسجيل يوم الولادة غير معمول به في تلك الحقبة ابتداءً، وربما يأتي بعد شروق شخصيته الفرد في أوساط المجتمع، أو أنّ الصدفة تحضر لبعضهم فيحظى بذكر تاريخ ولادته بالتحديد أو بالتقريب.

في العصر العباسي الأول نشطت حركة التدوين والتأليف، فظهرت الأسفار والموسوعات لكثير من العلوم والآداب والأنساب والتاريخ والتراجم والحديث النبوي الشريف والفقه والفلسفة والمترجمات وما إلى ذلك. وكان بعض حكامهم ينظرون فيها ويعملون على تنفيذ ما يريدون ذكره من زيادة وحذف وتحريف وتبديل، وفق ما تمليه مصالحهم ومعتقداتهم، وسخرّوا أقلام جملة من الكتّاب والمؤرخين لخدمة دولتهم ورجالهم، وسمحوا للغرباء والمنحرفين عن محمد وآل محمد ﷺ بتدوين ما يربك أفكار المتلقين ويشوه الحقائق بالبتر والوضع وخاصة في السنة النبوية، ونسبة فضائل أهل البيت عليهم السلام إلى آخرين بغير وجه حق، فجاءت الأخبار والروايات قلقة غير مقطوع بها، يغلب عليها الاحتمال والقيل والقال.

يقول محمد بن سعد الزهري البصري صاحب كتاب الطبقات الكبير: أخبرنا محمد بن عمر، حدثني أبو معشر عن محمد بن قيس، إن رسول الله ﷺ اشتكى يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة، فاشتكى ثلاث عشرة ليلة وتوفي ﷺ يوم الاثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة، وأخبرنا محمد بن عمر حدثني عبدالله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جدّه قال: إشتكى رسول الله ﷺ يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة وتوفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول[٥]. ومثل ذلك قال خليفة بن خيّاط: سنة إحدى عشرة فيها توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول، ويقال لليلتين خلتا منه[٦]، أما اليعقوبي فيقول توفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول [٧]. والطبري يقول: حدّثني أحمد بن عثمان بن حكيم

قال: حدثنا عبد الرحمن بن شريك قال: حدثني أبي عن ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم عن أبيه قال: توفي رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول في اثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين[٨]، ومثله قال المسعودي [٩]، أما حمزة بن الحسن الأصفهاني فيقول: اختلفوا في وقت موته بعشرة أيام فروى قوم إنه مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، وروى آخرون إنه مات يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول [١٠] وقال ابن الأثير: وكان موته يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول .. وقيل مات نصف النهار يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول[١١] وهو خروج على ما ذكره مَن سبقوه ...

ويأتي دور السهيلي [١٢] فيقول في (الروض الأنف): اتفقوا إنه توفي ﷺ يوم الاثنين، إلّا شيئًا ذكره ابن قتيبة في المعارف: الأربعاء. قالوا كلهم في ربيع الأول، غير إنهم قالوا أو قال أكثرهم في الثاني عشر من ربيع ولا يصح أن يكون توفي ﷺ إلّا في الثاني من الشهر أو الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر لإجماع المسلمين على إن وقفة عرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة وهو التاسع من ذي الحجة فدخل ذو الحجة يوم الخميس فكان المحرم أمّا الجمعة وأمّا السبت، فإن كان الجمعة كان صفر أمّا السبت وأمّا الأحد فإن كان السبت فقد كان الربيع الأحد أو الاثنين، وكيفما دارت الحال على هذا الحساب فلم يكن الثاني عشر من ربيع يوم الاثنين بوجه، ولا الأربعاء أيضًا كما قال القتبي، وذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنف إنّه توفي في الثاني من ربيع الأول، وهذا القول وإنْ كان خلاف أهل الجمهور فإنه لا يبعد إنْ كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلها من ٢٩ يومًا فتدبره، فإنّه صحيح، ولم أر أحدًا تفطن له، وقد رأيت للخوارزمي: إنّه توفي في أول يوم من ربيع الأول وهذا أقرب في القياس بما ذكره الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنف. ويوم ١٢ربيع الأول سنة ١١ هـ يوافق يوم السبت حسب تقويم أم القرى [١٣]. وبهذا التحليل الزمني يكون تحديد اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول تاريخًا لوفاته ﷺ غير صحيح.

أمّا ما عليه الشيعة الإمامية في تحديد يوم وفاة رسول الله ﷺ فهو يوم ٢٨ صفر سنة ١١ للهجرة وكان عمره الشريف ٦٣ عامًا ولم يختلفوا فيه. قال الشيخ المفيد في حديثه عن مرض رسول الله ﷺ ووفاته: ... وكان ذلك في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من هجرته ﷺ[١٤]، وبمثل ذلك ذكر الشيخ الطوسي في تهذيب الأحكام[١٥].

ويمكن أن نستعين بتاريخ وفاة الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام للوصول إلى تاريخ وفاة أبيها الرسول الأعظم ﷺ وذلك من رواية الـ ٩٥ يومًا – في ٣ جمادى الآخرة [١٦] في هذا اليوم ٣ جمادى الآخرة سنة ١١هـ شهادة سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله ﷺ بناءً على رواية أنها عليها السلام توفيت بعد أبيها ﷺ بخمسة وتسعين يومًا[١٧]، وفي هذه الرواية شيء من الثبات والمعوّل. فإذا رجعنا من هذا اليوم إلى يوم وفاة النبي ﷺ فسوف نصل إلى اليوم المرجح والموثق في جملة من مصادر الشيعة الإمامية ومنها: (الإرشاد للشيخ

المفيد، وبحار الأنوار للمجلسي، ومناقب آل أبي طالب لأبن شهر آشوب). وقال الطبرسي: قُبض رسول الله ﷺ وقت الضحى من يوم الاثنين بعد خروج أُسامة إلى معسكره بيومين[١٨].

وعليه: فإن اليوم الذي توفي فيه الرسول الأعظم محمد ﷺ هو يوم ٢٨ صفر وليس غيره، لسلامته من القيل والقال.

---

١) إبن سعد / الطبقات الكبير/١: ١٢٠ – ١٢١.
٢) المصدر السابق / ١: ٩٧، ١٠٢.
٣) ابن شهر آشوب /مناقب آل أبي طالب/١: ١٢٣.
٤) المصدر السابق/١: ١٢٥ – ١٢٦.
٥) إبن سعد / الطبقات الكبير/ج٢ قسم ٢ ص٥٧.
٦) تاريخ خليفة بن خيّاط/١: ٦٨.
٧) تاريخ اليعقوبي/٢: ١٠٣.
٨) تاريخ الطبري/٣: ٢١٧.
٩) مروج الذهب/٢: ٢٨٧.
١٠) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء/ص١٢٣.
١١) الكامل في التاريخ/٢: ٣٢٣.
١٢) السهيلي: هو أبو القاسم عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبدالله الأندلسي المالقي النحوي اللغوي المحدث المفسر، صاحب ... والروض الأنف شرح سيرة رسول الله ﷺ. ولد سنة ٥٠٨ وتوفي سنة ٥٨١ هـ، انظر: الشيخ عباس القمي / الكنى والألقاب/٢: ٢٩٩.
١٣) شبكة المعلومات (الانترنت).
١٤) الشيخ المفيد / الإرشاد/ص١٢٨.
١٥) تهذيب الأحكام/الشيخ الطوسي/ج٦ص٢.
١٦) ذكرت عدة روايات أنها عليها السلام عاشت بعد أبيها ﷺ:
أولاً: ثلاثين يومًا أو خمسة وثلاثين (تاريخ اليعقوبي ٢: ١١٥).
ثانياً: عاشت بعد أبيها ٤٠ يومًا (مناقب آل أبي طالب ٢: ١١٦).
ثالثاً: عاشت بعد فقد أبيها ٧٥ يومًا (أصول الكافي، والإمامة والسياسة ١: ٢٠).
رابعاً: عاشت بعد رحيل أبيها على حضرة القدس ٩٥ يومًا. وهو الأقوى (بحار الأنوار ٤٣: ١٥٦).
خامساً: عاشت بعد أبيها ٦ أشهر، ٨ أشهر (انظر: حسن فليح أبو صبيع / فاطمة الزهراء عليها السلام بين السائل والمجيب)/ ص٥١٥ – ٥١٦.
١٧) الذرية الطاهرة للدولابي ١٥١ / ١٩٩، كشف الغمة ١: ٥٠٣، بحار الأنوار ٤٣: ١٩٦).
١٨) الطبرسي / الاحتجاج/١: ١٧٤.

مساجد من العالم

المسجد الأزرق: هو مسجد يقع في قلب مدينة مزار شريف في أفغانستان.

المسجد قديم العهد أثري البنيان، وبحسب الأسطورة الأفغانية هو مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ولعله لأحد الصالحين وقد تشابه اسمه مع اسم الإمام علي عليه السلام فاشتبه الأمر عليهم. ولقد قررت سلالة السلاجقة متمثلة بالسلطان أحمد سنجر إعادة بناء المسجد الأزرق لأول مرة في نفس موقعه، ثم تم تدمير المسجد على يد الغازي جنكيز خان في غزوه للمنطقة في حوالي عام ١٢٢٠م، وقد أعيد بناؤه في القرن الخامس عشر من قبل السلطان حسين ميرزا بيغراه.

مع الفقيه

أجوبة استفتاءات مطابقة لفتاوى سماحة السيد الحكيم (مدّ ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم

س شخص مقلّد لمن يعتقد بجواز تقليده، أعطى خمس ماله إلى وكيل لبعض المراجع، والوكيل يعتقد -تقليدًا- أن المقلّد ممن لا يجوز تقليده إما لأنه غير مجتهد أو لأنه يحمل عقائد منحرفة، فهل إرجاع الوكيل الحق الشرعي إلى الفقيه الأعلم أو من هو في فلك الأعلمية مبرئ للذمة؟

ج **إذا كان دافع الخمس لم يعين للوكيل جهة خاصة للإيصال فعليه أن يعمل بوظيفته الشرعية حسب الموازين التي يعتقدها.**

س إذا كانت زوجتي لا تصلي فأمرتها ولم تجب وضربتها ولم ترتدع ووصل بنا الأمر إلى الطلاق فهل أفعل ذلك؟

ج **لا يجب الطلاق، لا تكلف إلّا بأمرها وإرشادها.**

س يكثر ابتلاء المؤمنين هذه الأيام ـ وخصوصًا المنتمين للشرطة وحراس الأماكن المقدسة وغيرها ـ بموقف محرج مع الإرهابيين الانتحاريين حيث أن منع الانتحاري من دخول المكان المستهدف حماية للأبرياء يوجب تعريض المدافع نفسه للقتل، فهل يجوز ذلك لعامة المؤمنين، أو لخصوص المتصدين للحراسة ونحوهم؟ وهل يحتاج إلى إجازة الحاكم الشرعي؟

ج **يجوز تعريض الإنسان نفسه للخطر دفعًا لقتل الأعداد الكبيرة ولا يختص ذلك بالمتصدين للحراسة.**

س لو سأل شخص: من كسر زجاج سيارتي؟ فهل يجوز أو يجب على من يعلم أن يخبره، أم يعد ذلك من مصاديق النميمة؟

ج **لا يجب الإخبار.**

س إذا وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشرائطهما المقررة لهما؛ فهل يكون الوجوب فوريًا أم يجوز التأخير إلى وقت آخر، أو أجل غير مسمى؟ من دون تهاون في أداء الواجب؟

ج **إذا كان التأخير لا يستلزم وقوع المنكر بلا إنكار فهو جائز في الحالة المذكورة، وإذا كان التأخير يستلزم ذلك فهو غير جائز.**

س تصديق الزوجة بما تقول بحيث يترتب على هذا التصديق مفاسد كثيرة كقطيعة الرحم مثلًا، فهل هذا التصديق إثم؟

ج **لا يجوز تصديق الزوجة ولا غيرها في أمثال ذلك، وحتى لو صدقت لا يجوز ترتيب هذه الآثار.**

س ما هو حكم بعض الألعاب التي تتواجد بكثرة في عصرنا هذا، وهذه الألعاب هي الأتاري والمنضدة والبليارد؟

ج **الألعاب المذكورة جائزة في نفسها إلّا أن تحتوي على القمار والرهن فتحرم ويحرم المال المأخوذ بالرهن.**

س ما حكم ضرب الدفوف والطبول لتشجيع اللاعبين إذا لم تكن مما يتناسب مع مجالس اللهو؟

ج **إذا لم يكن الضرب بالنحو المبني على التلذذ والطرب فهو جائز.**

س هل يجوز البكاء في حالة خسارة المنتخب وشق الجيب وضرب الجسد لإظهار الأسف ونحو ذلك؟

ج **أما البكاء ومظاهر الحزن فهي جائزة في نفسها، نعم قد تكشف عن ارتباط نفسي أكيد باللعب واللعبة واللاعبين، وهذا من شأنه أن يوقع الإنسان في مخالفات شرعية.**

س ظهرت في الآونة الأخيرة ظاهرة الزواج بالتهريج والطبول والرقص في الشوارع في حال الزفاف ورمي النقود في الهواء، وأدى أحدها إلى حادث وذهب فيه ثلاثة أطفال، فما هو رأي سماحتكم بذلك؟

ج **إذا اقترن ذلك بفعل المحرّمات جهراً وعلناً، فهو من أعظم المحرّمات لما فيه من التجاهر بالفسق وعدم الاعتناء بأحكام الله وحدوده.**

س هل يجوز مشاهدة الأفلام الخليعة إذا لم يتأثر الناظر إليها أو لم يتلذذ؟

ج **يحرم عقلاً التعرض لما يكون سبباً للوقوع في الحرام، ومن المعلوم أن النظر المذكور من أسباب ذلك غالباً.**

س هل إن التعامل مع المحلات التي تتجاهر بالأغاني حلال أم حرام؟

ج **التعامل مع المحلات المذكورة حلال إلّا أن يكون في ذلك تشجيع على الحرام، نعم يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان وتوفر الشروط.**

س هل تجوز النميمة على غير المؤمن؟

ج **الأحوط وجوباً تركها، إلّا أن تكون فيها مصلحة دينية، كدفع شرهم عن المؤمنين.**

س أنا الابن الأكبر لوالدي الذي توفاه الله وكنت بارًا بوالدي في حياته برًا شديدًا، ولكن بعد وفاته قطعت والدي من الأعمال الخيرية مثل الصلاة والصيام وما شاكل ذلك وذلك لتأكدي أن أبي لا يوجد عليه صلاة أو صيام متخلف ماعدا الذي كتبه في الوصية، هل بر والدي بعد موته بالأعمال الخيرية واجب أو مستحب؟

وهل قطع الأعمال الخيرية عن أبي يترتب عليه عقوق لوالدي؟ وهل يحاسبني الله على ذلك؟

ج **ورد في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أن العبد ليكون بارًا بوالديه في حياتهما ثم يموتان فلا يقضي عنهما ديونهما ولا يستغفر لهما فيكتبه الله عاقًا، وكفى بذلك محفزًا للإنسان لأن يصل أبويه بالبر والصدقة والإحسان حتى بعد وفاتهما والله الموفق.**

س كثرت منذ مدّة من الزمن وفي مناطق العراق المختلفة وخاصة في بغداد، وجود الرجال مع النساء داخل سيارات الأجرة الكبيرة بصورة مزدحمة جداً، بحيث يؤدي ذلك قطعاً إلى التماس المباشر للرجال مع النساء (حتى يصل الأمر أحياناً إلى التقاء العورتين) مما يوقع الرجال والنساء في حرج شديد وخاصة المؤمنين منهم، وأشدّ هذه المظاهر وجوداً في السيارات الخاصة بمدينة الكاظمية المقدسة، حيث إن السائق لا يقبل إلّا أن تمتلئ مقاعد السيارة وكذلك الفراغ الموجود في الممر بين المقاعد يمتلئ بالواقفين، وليس هذا ناجماً عن شحة السيارات بل هي كثيرة جداً، وبعد هذا فما هو تكليف كلّ من:

أ ـ مالك السيارة الذي يعلم بوجود هذه الحالة؟

ب ـ السائق الذي يعمل فيها، وهو قد يكون مجبراً من قبل المالك أو لكي يزداد أجرهُ المادي؟

جـ ـ ركاب السيارة الواقفين في الممر بين المقاعد والذين يصعدون فيها بالرغم من كونها ممتلئة.

ج **يتحمل المسؤولية الركاب الذين يقومون بالأعمال المنافية للشرع وعليهم اجتناب الصعود في الحالات التي تؤدي إلى الوقوع في الحرام، ولا إثم على السائق ولا على مالك السيارة.**

الإنفاق أساس العدل الاجتماعي

الباحث: خضير عباس محمد/ واسط

ينابيع الحياة تصبح ممكنة وصالحة إن نحن نفذّنا التكاليف المفروضة في هذا الدين، ولكن النفس المسلمة تظل تعرج في معارج الكمال بما يوجه إليه الضمير البشري من تسامح وارتفاع وتسام، فالتوجه الوجداني في هذا الدين هو الجزء المكمل للتكليف المفروض فيه، ثم هو الكفيل بتنفيذ هذا التكليف عن طواعية ورضى وإقبال ويمنح الحياة البشرية قيمتها الإنسانية الكريمة المترفعة عن القيود والضرورات، وعن ضغط القانون ودفع التكاليف ايضًا، ومن تداخل النفس يعمل الإسلام ومن أعماق الضمير يحاول الإصلاح، ولكنه لا يغفل أبدًا عن الواقع العملي في محيط الحياة، ولا عن حقيقة النفس البشرية، جاء في التنزيل الحكيم قوله تعالى: **(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)** (الجن: ١٦) **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)** (الأنعام:١٥٣).

وحينما حاول الإسلام أن يحقق العدالة الاجتماعية كاملة، ارتفع بها عن أن تكون عدالة اقتصادية محدودة، وأن يكون التكليف وحده هو الذي يكفلها، فجعلها عدالة إنسانية شاملة، وهدف الإسلام انتزاع الأنانية والأثرة من نفوس المقتدرين والأغنياء، ليسير مركب الحياة آمنًا، ونظامه يقوم على أساس التصور الإيماني والتربية الإيمانية فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصة ثم يقيم لها النظام الذي تتبين فيه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفة وفضائلها العالية، لذلك شرّع طُرقًا كثيرة لأعمال البر التي تعتبر من الأعمال الصالحة لتحقيق العدل

الاجتماعي، وهو بدوره تعاون الجهود في المجتمع لإيجاد تضامن اجتماعي قوي سليم بين الأفراد: (**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**) (المائدة: ٢)، وقد وضع الإسلام نُظُمًا لا حصر لها كأساس للعدالة الاجتماعية وللتكامل بين أفراد المجتمع ولتقليل الفوارق بين الطبقات والأفراد وتقريب بعضهم من البعض الآخر، فالإسلام يكره أن تكون الفوارق بين أفراد الأمة، بحيث تعيش منها جماعة في مستوى الترف وتعيش جماعة أخرى في مستوى الشظف (يفترشون التراب ويطبخون الماء)، ثم أن تتجاوز الشظف إلى الحرمان والجوع والعري، فهذه أمة غير مسلمة لأن وراء هذه الفوارق أحقاد وأضغان تحطم أركان المجتمع، ولما فيها من إثرة وجشع وقسوة تفسد النفس والضمير، ولما فيها من اضطرار المحتاجين إما إلى السرقة والغصب وإما إلى الذل وبيع الشرف والكرامة، وكلها مخدرات يتجافى الإسلام عنها. لذلك اختار أمير المؤمنين علي عليه السلام مبدأ المساواة في العطاء، وهو مبدأ إسلامي سليم يتفق مع روح المساواة الإسلامية ويكفل للمجتمع الإسلامي التوازن، فلا يدع الثروات تتضخم إلّا بقدر الجهد والعمل وحدهما لا بفضل اتاحة فرصة للآخرين بوجود وفرة من المال للعمل فيه أكبر مما لدى الآخرين.

كذلك يكره الإسلام أن يكون المال دُولة بين الأغنياء في الأمة، لأن في النهاية ينتهي بتجميد الحياة والعمل والإنتاج في هذه الأمة، بينما وجود الأموال في أيدي أكبر عدد منها يجعل هذه الأموال تنفق لشراء ضروريات الحياة لهذا العدد الكبير، فيكثر الإقبال على السلع، فينشأ من هذا كثرة الإنتاج فتترتب عليه العمالة الكاملة للأيدي العاملة وبذلك تدور عجلة الحياة والعمل والإنتاج والاستهلاك دورتها الطبيعية المثمرة.

ومن هذه النظم نظام (الزكاة) ونظام (الصدقات) الواجبة والمستحبة، ففي مجال الإنفاق ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أربع عشرة آية متوالية في أحكامه آخرها الآية: (**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**) (البقرة: ٢٧٤)، وسبب نزولها عن ابن عباس أن أمير المؤمنين علي عليه السلام كان يملك أربعة دراهم تصدق بدرهم في الليل وآخر في النهار، ودرهم سرًا وآخر علنًا)[1]، وقد دعا القرآن الكريم الناس للبذل قبل فوات الأوان كما صرحت بذلك الآيات المباركة في قوله تعالى: (**قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً**) (إبراهيم:٣١)، وقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ) (البقرة: ٢٥٤)، ومن طرق الإنفاق (الصدقة) التي تعتبر قرضًا لله مضمون الوفاء: (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ) (الحديد:١٨)، وقال تعالى: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) (النساء: ١١٤)، والصدقة تطهير للنفس والمال، وقد أمر رسول الله ﷺ أن يأخذ من قوم أذنبوا أو اعترفوا بذنوبهم قسطًا من مالهم ينفق في الخير تطهيرًا وتزكية لهم: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) (التوبة: ١٠٣)، وقد روي عنه ﷺ: (الصدقة تدفع ميتة السوء)[٢]، وهي تجارة رابحة مجزية: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) (فاطر: ٢٩)، وهكذا يرتفع بالشعور الإنساني في هذا المجال إلى مستوى رفيع كريم تتشرف به الإنسانية في أعصارها جميعًا، وتفتخر به في الماضي والحاضر والمستقبل إلى ما شاء الله.

وهناك آداب في إعطاء الصدقة ترفعها عن التفضل والاستعلاء من الواجد والمحروم أو أن تكون رياءً صادرًا عن شعور غير كريم لأن الصدقة إن هبطت دوافعها أو تبعها المنّ على أخذها استحالت عملًا خسيسًا يؤذي النفس والخلق والضمير ويؤذي المجتمع (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى) (البقرة:٢٦٤)، ويفضل في العطاء إخفاء الصدقة ودفعها سرًا للمعوزين حفظًا لكرامتهم من جهة ومنعًا للاختيال والتخرص من جهة أخرى (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (البقرة:٢٧١)، دخل أحدهم على الإمام علي عليه السلام فقال عليه السلام ما عندك؟ فقال حاجة، فقال له عليه السلام: (اكتب حاجتَك على الأرض؛ فإنّي أكره أن أرى ذلّ السؤال في وجهك)[٣]، وهذا تصور بارع جميل لكتمان البر واحتسابه من غير مفخرة ولا إعلان.

ولسلامة المجتمع وتحقيق العدل الاجتماعي سار الإسلام فيهم بالإقناع الوجداني، كلما شرَّع تكليفًا ويقف بالتكليف عند الحد الضروري وفي حدود الطاقة العامة لجماهير الناس، ثم يخاطب الوجدان للإقناع بالتكليف وللسمو فوقه ما استطاع ليرتفع بالحياة الإنسانية ويجذبها دائمًا بخيط الصعود، ويدع المجال فسيحًا بين الحد الأدنى المطلوب والحد الأعلى المرغوب ليتسابق فيه الأفراد والأجيال على مدى الأزمان والقرون. وهذا التسابق يعتبر من الأعمال لصالحه التي يرفعها الله سبحانه (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ).

ومن طرق الإنفاق الأخرى (الزكاة) حق المال، وهي عبادة من ناحية وواجب اجتماعي من ناحية أخرى، وهي الدعامة الأولى لبناء المجتمع المتماسك الرصين، والزكاة طهارة للنفس والقلب من نظرة الشح وغريزة حب المال، وقد صرحت بها العديد من الآيات التي قرنت بينها وبين الصلاة وهي ست وعشرون آية، ومُنكر وجوبها يخرج من الإسلام، كما ورد في وصية النبي ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: (من منع قيراطاً من زكاة ماله فليس بمؤمن ولا بمسلم ولا كرامة، يا علي تارك الزكاة يسال الله الرجعة إلى الدنيا، وذلك قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ ارْجِعُونِ (المؤمنون:٩٩)[٤]، لذلك جعلت الزكاة قاعدة النظام الإسلامي في مقابل النظام الذي يقوم على القاعدة الربوية ويجعل الحياة تنمو والاقتصاد يرتقي عن طريق الجهد الفردي أو التعاون البريء من الربا (فرض الإسلام على مختلف فروع الثروة من أنواع الزكاة ما يكفل تحقيق العدالة الاجتماعية ويسد حاجات المعوزين ويحول دون تضخم الثروات ويؤدي إلى تقليل الفروق بين الطبقات ويشيع روح التكامل والتواصل بالبر والإحسان، وقد جعل الإسلام الزكاة من أهم أركانه لما لها من وظيفة هامة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية)[٥]، والزكاة لا تتحدد بالمعنى الفقهي الخاص فقط بل تشمل كل الوظائف المالية للمسلم من الخمس والفطرة والصدقات والإنفاق على المحرومين وأعمال البر والخير وما شاكل .....

وللأسف الشديد بهتت صورة الزكاة في حس هذه الأجيال التعيسة المنكودة الحظ والتي لم تشهد نظام الإسلام مطبقًا في عالم الواقع فحسبت تلك الصورة إحسانًا فرديًا هزيلا لا ينهض على أساس نظام عصري، وهذه الأجيال ولدت وعاشت في غمرة النظام المادي القائم على الأساس الربوي وشهدت التكالب والتطاحن والفردية والإثرة التي تحكم ضمائر الناس فتجعل المال لا ينتقل إلى ما يحتاجون إليه إلّا في الصورة الربوية الخسيسة وجعلت الناس يعيشون بلا ضما نا ت مالم يكن لهم رصيد من المال أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم في مؤسسة التأمين الربوية فوفر في حس هذه الأجيال المنكودة أنه ليس هناك نظام إلّا هذا النظام، وأن الحياة لا تقوم إلّا على هذا الأساس.

اهتم القرآن الكريم بذكر الإنفاق والتصدق والزكاة في كثير من سوره، وهذا يدل عن أهميته ودوره في إقامة الكيان الاجتماعي الذي هو هدف من أهدافه العظيمة، وعلى رأي الإمام الصادق عليه السلام أن أنواع الصدقات والإحسان هي من العوامل والمظاهر للقضاء والقدر التي تؤثر في المصير عبر المسارات المعنوية، كما في قوله (من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار)[٦].

الإسلام يكره الفقر والحاجة للناس، والسؤال مما في أيدي الناس محرَّم لغير ضرورة، والفقر مؤلم وموجع، وقد صرح في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: (ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر)[٧]، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في دعائه: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَمِنْ تَشَتُّتِ الأَمْرِ)[٨]، فالنبي صلى الله عليه وآله كان يفهم سر الطبيعة البشرية ويدري أنها ضعيفة بطبيعتها فإذا لم يدارها المجتمع ويراع مصالحها تسفلت أو تزندقت! إننا لا نستطيع أن نجد ايماناً صحيحًا ونفسًا مطمئنة في أناس قد عظهم الفقر بنابه أو في أناس قد أبطرهم الغنى وأعماهم الترف والدلال، والفقر كلمة اشتقت من الفعل (افتقر) فإنها تعني الحاجة سواء أكان ذلك من

الماديات أو المعنويات والفقر الحقيقي يكمن في النفس[٩]، الفقير من لا يملك شيئًا أو له شيء لا يسد خلته، والمسكين من له بلغة من العيش قدر كفايته[١٠]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (إن الله فرض على أغنياء الناس في أموالهم قدر الذي يسع فقراءهم)[١١]، فالفقراء في كل وقت هم ضحايا الأغنياء المفحشين، والأغنياء المفحشون في الغالب هم نتاج الأعطيات والإقطاعيات والمحاباة والظلم والاستغلال، والأمة مسؤولة عن حماية الضعفاء فيها ورعاية مصالحهم وهي مسؤولة عن فقرائها ومعوزيها، فإذا بات فرد واحد جائعًا فالأمة كلها تبيت آثمة مالم تتحاض على طعامه، وقد روي في الحديث: (وأيّما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمّة اللّه)[١٢]، والأمة المسلمة كلها جسد واحد، يحس إحساسًا واحدًا وما يصيب عضوًا منه يشتكي له سائر الأعضاء وهي صورة جميلة يرسمها رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وآله فيقول: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى)[١٣]، وكما رسم صلى الله عليه وآله للتعاون والتكافل بين المؤمن والمؤمن صورة أخرى معبرة دقيقة في هذا الحديث: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)[١٤]، وذلك أسمى ما يتصوره الخيال للتعاون والتكافل لتحقيق العدل الاجتماعي في الحياة.

---

١) تفسير الوسيط/ محمد جواد مغنية/ ج١ص٤٢٨.
٢) وسائل الشيعة / الحر العاملي/ ج٢ص٢٥٥.
٣) البداية والنهاية/ابن الأثير/ج٨ص١٠.
٤) من لا يحضره الفقيه/ الشيخ الصدوق/ ج٤ص٣٦٧.
٥) معجم العلوم الاجتماعية/ د.إبراهيم مذكور/ ص٣٠٤.
٦) أمالي الشيخ الطوسي/ ص٣٠٥.
٧) شرح النهج/ابن أبي الحديد/ج٢٠ص٣٠١.
٨) الكافي/الكليني /ج٤ص٤٦٤.
٩) معجم العلوم الاجتماعية /د . إبراهيم مذكور ص٤٥٣.
١٠) المبسوط/الشيخ الطوسي/ج٤ص٣٤.
١١) بحار الأنوار/المجلسي/ج٩٣ص٢٨.
١٢) المستدرك/الحاكم النيسابوري/ ج٢ص١٢.
١٣) ١٣- كنز العمال/المتقي الهندي/ج٤ص٢٨٣٧.
.
١٤) مسند أحمد/ج٤ص٤٠٥.

من قصص العلماء

حكى أحد العلماء قال: كنت جالسًا قرب تل الزينبية وبجانبي رجل واقف، وفي الأثناء وقعت عيني على المرحوم آية الله العظمى السيد أبو الحسن الأصفهاني أكبر مراجع زمانه للشيعة إذ خرج مع مرافقيه من حرم الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

فالتفت إلى الرجل وإذا به انطلق منفعلًا نحو السيد الأصفهاني وهو يقول بصوت عال: سوف أشتمه بئس الشتيمة! وبعد دقائق رأيته عاد باكيًا وعليه آثار الخجل والندامة! سألته عن السبب لهذه المفارقة العجيبة بين الموقفين؟ فقال: لقد شتمت السيد حتى باب منزله، وهو لا يرد، وعند الباب توقف وطلب مني أن أنتظره، دخل ثم رجع و بيده مبلغ من المال، أعطاني ذلك وقال لي: راجعنا لدى كل مضيقة تعترضك، إذ أخشى أن تراجع غيرنا فلا يقضي حاجتك.

و لكن لي إليك حاجة واحدة! وهي أنني أتحمل كل شتيمة موجهة إليّ شخصيًا، ولكن أرجوك أن لا تشتم عرضي وأهل بيتي، فإني لا أتحمل ذلك، وأضاف الرجل وهو يرتعش: إن هذه الكلمات التي قالها لي السيد الأصفهاني – أعلى الله مقامه – تركت أثرًا بالغًا في أعماقي حتى كدت أخر إلى الأرض، وهذه دموعي جرت بلا إرادة مني، وإني أشعر برعشة في أعماقي كما تراني.

نقل بتصرف عن: (قصص وخواطر للمهتدي البحراني)

التسامح والتعايش السلمي في نصوص آيات القرآن الكريم

أ.د.فيصل علي البصام
كلية العلوم للبنات/جامعة بابل

ينابيع

مفهوم التعايش السلمي مبدأ من مبادئ الإسلام، فهو قانون إلهي يهدف إلى صون حياة البشرية، وفق ضوابط تقوم على حق الاحترام والاعتراف بأحقية الآخرين في العيش الكريم. وهو عبارة عن قاعدة عقائدية ذات جذور إيمانية جاءت عبر سلسلة من الهدي الإلهي، فجاء الأنبياء والرسل يحملون نداء المولى عزّ وجلّ لنشر دعوة التوحيد، وتوجيه الشعوب والقبائل بأن الغاية من خلقهم التعارف والتعايش، وليس الصراعات والحروب.

ولأن الإنسان هو جوهر عملية التعايش والسلم، لذلك خصه الله تعالى بالاستخلاف في الأرض لإظهار قيمته الآدمية. فالتّعايش في ظلال القرآن الكريم يسعى إلى خدمة الأهداف الكلية.

إن التعايش السلمي مع الذات ومع الآخرين يشكل قيمة راسخة في النفس الإنسانية عندما تدرك القواسم والقيم المشتركة بين الأديان السماوية.

فالإسلام حريص على تقوية أواصر حسن الجوار مع كافة المجتمعات، كما يعتبر التسامح من خصائصه المهمة، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال أحكامه وتعاليمه الاجتماعية. ولذا فإن الشريعة الإسلامية تنظم روابط المسلمين فيما بينهم وأيضًا تؤكّد على ثقافة التسامح والتساهل مع أصحاب الأديان الأخرى. وقد جعل الله تعالى علاقات البشر فيما بينهم مبنيّة على أساس الأخوة والألفة: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**) (الحجرات:١٠).

كانت سيرة النبي ﷺ مبنيّة على ذلك. كما يوصي القرآن الكريم المسلمين أن يتعاونوا فيما بينهم لحل الأمور العالقة، قال تعالى: (**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**) (المائدة:٢). وقد ورد في بعض الروايات (إنّ علياً لم يكن ينسب أحدًا من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق، ولكنّه كان يقول: (هم إخواننا بغوا علينا).

أقول: فانظر إلى سعة صدر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأنّه كيف كان يحتمل مخالفيه وأهل حربه من المسلمين وأنّه كان يواجههم بالصفح والعفو وحسن العبارة)[1].

التسامح والتعايش السلمي في سياق النصوص القرآنية:

لقد تناول القرآن الكريم موضوع التسامح باعتباره من الصفات والخصائص اللازمة لكل فرد مسلم ودعامة أساسية من

دعائم التعايش السلمي مع غيره، وذلك في آيات عدة عبّر عنه فيها بالعفو والحلم والصفح الجميل وألفاظ أخرى لها دلالتها كالنهي عن الصفات الذميمة من كذب وكبر وعجب وبخل وتفاخر ورياء وغل وحسد وغيرها مما يعكر صفو العلاقات الإنسانية. فلم يكتف الإسلام بالدعوة العامة إلى التحلي بالأخلاق الحميدة والتخلي عن الأخلاق الذميمة، وإنما فصل القول في الصنفين فبين أنواع كل صنف، والحكمة في هذا البيان المفصل هي توضيح معاني الأخلاق وتحديدها لئلا يختلف الناس فيها وتتدخل الأهواء في تحديد المراد منها.

أنواع التسامح في القرآن

باستقراء النصوص القرآنية نجد أن التسامح يمكن تقسيمه باعتبار دائرته إلى:

١ـ التسامح بين الأفراد: وهو ما ينبغي أن تكون عليه علاقات الأفراد فيما بينهم بحيث يتبادلون الاحترام ويتعاملون بالحسنى ويتغاضون عن جهالات الآخرين، ومن الآيات التي تجسد هذا قوله تعالى: (**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**) (الأعراف: ١٩٩)، وروي أنه لما نزلت هذه الآية، سأل رسول الله ﷺ جبرائيل عن ذلك، فقال: لا أدري حتى أسأل العالم، ثم أتاه فقال: يا محمد! إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك[٢].

٢ـ التسامح بين الزوجين في الأسرة الواحدة

وهذا النوع من التسامح من الأمور الواجبة شرعًا للوفاء بما التزمه الزوجان من المعاشرة الطيبة والألفة والمودة والتراحم والتواد، ويدل عليه قوله تعالى: (**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**) (النساء: ١٩)، أي طيّبوا

أقوالكم لهن وحسِّنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحبون ذلك منهن.

٣ـ التسامح بين الجماعات:

والمفروض في هذا النوع أن الجماعة قد تتعرض للضغط والظلم والتغليظ بالقول من قِبَل جماعة أخرى، فالمطلوب في هذه الحالة كخطوة أولى تفادي أضرار المواجهة بالقوة، وهذا من كمال التسامح لهذا الدين فلم يأمر أتباعه بالقتال والمواجهة الساخنة أول الأمر بل فتح بابًا للموادعة وتهدئة الأوضاع كما في قوله تعالى: (**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) (البقرة: ١٠٩)، أي: فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة[٣].

٤ـ التسامح بين الشعوب والدول:

وهذا النوع من التسامح هو الذي يركز عليه القرآن الكريم في رؤيته لخريطة العالم العقدية والسياسية، ففيما يتصل بالعقيدة يؤكد أنه لا سبيل لفرض العقيدة بالقوة كما في قوله تعالى: (**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**)(البقرة:٢٥٦)، أي لا تُكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح جليٌّ دلائله وبراهينه. وقد هيّا القرآن أتباعه نفسيًا لقبول التعدد والتنوع الديني بذكره مرارًا وتكرارًا لقصص السابقين من الأقوام والملل وأنه لا يتوقع هداية كل الناس وأن الاختلاف بينهم أمر طبيعي وكائن، كما في طائفة من النصوص لعل من أصرحها قوله عز وجل: (**أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا**) (الرعد:٣١)، جاء ذلك في سياق تأكيده على إعجاز القرآن وكفايته في الدلالة على سبل الخير والفلاح لكل من تدبر فيه ولم يتمادَ في اتباع الهوى، فإذا وجدنا مع قوة هذا القرآن المعجز في منطقه الواضح واستدلاله الناصع أقوامًا لا يدينون به ولا يتخذونه مرجعًا وإمامًا فهذا أمر طبيعي لا ينبغي أن يصيبنا بفتور أو إحباطٍ في الدعوة إلى الحق.

مرتكزات التسامح والتعايش السلمي في القرآن

ويتدرج النظام الأخلاقي القرآني بدءًا بالفرد ومرورًا بالأسرة والمجتمع والدولة وانتهاءً بالمجتمع الإنساني الدولي، وفي كل دائرة من هذه الدوائر يتميز التعليم القرآني بالتركيز على العلم والتزود بزاد الحكمة والتقوى.

ومن أهم المرتكزات في هذه العملية طهارة النفس، في قوله تعالى: (**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**) (الشمس:٧ـ١٠)، وقوله تعالى: (**يَوْمَ لَا**

يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ*إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(الشعراء:٨٨- ٨٩).

وقوله عزّ من قائل: (**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**) (ق: ٣١- ٣٣)، وهذا يعني أنّ الإيمان يصقل شخصية المؤمن فيؤهلها لقبول الحق ونسيان الذات والتسامي على المطالب الدنيّة، ولا ننسى في هذا المجال دعوة القرآن الكريم لكظم الغيظ: (**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) (آل عمران: ١٣٣-١٣٤).

ولا يقف المؤمن الكامل عند هذا الحد بل يصل إلى مقام الإحسان بالتدرج من الكظم إلى العفو ثم إلى الإحسان مع المسيئين، فقد كانت (جارية لعلي بن الحسين عليه السلام تسكب الماء عليه وهو يتوضأ للصلاة فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجه فرفع علي بن الحسين عليهما السلام رأسه إليها فقالت الجارية: إن الله عز وجل يقول: (**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ**)، فقال لها: قد كظمت غيظي. قالت: (**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**) قال لها: قد عفا الله عنك قالت: (**وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**) قال: اذهبي فأنت حرة[٤]..

حرمة النفس الإنسانية وكرامتها:

وحين نأتي إلى الفقه الجنائي الإسلامي كما يتجسد في القرآن الكريم نرى وبكل وضوح أن للنفس الإنسانية حرمتها وكرامتها وحقها في العيش الكريم بعيدة عن كل اعتداء وإكراه، قال تعالى: (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**) (الإسراء:٧٠).

قيل في تكرمة ابن آدم: كرّمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد[٥]، قال تعالى: (**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ**) (الأنعام: ١٥١، الإسراء: ٣٣)، مما يدل بإطلاقه وعمومه أن النفس الإنسانية مصونة ومعصومة لاسيَما إذا كانت في دار المسلمين وتحت سلطتهم، قال تعالى: (**أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**) (المائدة:٣٢).

أما إيذاء المؤمنين والمؤمنات دون داع فمن الكبائر والأمور المحرّمة قطعًا، كما يدل عليه قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**)

(الأحزاب:٥٨)، فإن مجرد الإيذاء بالقول أو العمل يعدّ جريمة تستحق العقوبة التعزيزية على أقل تقدير، وفي هذا ضمان لكل مؤمن ومؤمنة أن ينعم بعيش رغيد يأمن فيه على كرامته ونفسه وماله وأسرته.

تربية المسلم على ثقافة التسامح والتعايش

وفي الجانب الآخر من البعد التربوي الإسلامي ما يكفل للفرد ذاته وللمجتمع توازنه إشاعة روح التسامح والتراحم والتواد، كما في قوله التوجيهي الحنون: (**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**) (البلد: ١٧- ١٨)، وهذا يعني أن التعامل الأمثل في حالات التعدد والتنوع هو إما بالصبر على البلاء حين يكون المؤمنون في مستوى الأقلية العددية وإما بالمرحمة بمن هو دونهم في مستوى الحياة والسلطة، لا أن يحيفوا ويسدّوا عليه أبواب الحياة والحرية. بل عليهم المعاملة بالحسنى وبالإحسان: (**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**) (البقرة: ٢١٥).

والأخلاقيات التي يؤكدها القرآن الكريم لبسط ثقافة التسامح كثيرة منها التمسك بالحق بغض النظر عن قائله وصاحبه وإنصافه ما أمكن، كما قوله تعالى: (**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) (الأنعام:١٥٢).

ومنها الإيثار البطولي بقوله تعالى: (**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) (الحشر:٩)، وكذلك رد التحية بأحسن منها في التعامل مع الغير مما يؤدي لا محالة إلى إشاعة روح التفاهم والتعارف واستعمال أطيب العبارات بقوله تعالى: (**وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**). وقوله تعالى: (**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**)(الإسراء:٥٣).

وعدم تمييز الناس وتفضيلهم على أساس العرق أو اللون أو القومية، كما في قوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**)، أما الرباط الإنساني فهو رباط مقدّس

فوق اعتبارات الجنس و النوع. وما أكثر النصوص القرآنية التي تدعو إلى ترسيخ روح التسامح والأريحية بين بني الإنسان والتي إن تمت تربية الأجيال عليها في المدارس والمعاهد وعبر القنوات الإعلامية المختلفة ووفق خطط علمية وتربوية مدروسة حققت للشعوب والأمم ما تريد لنفسها من رخاء وسؤدد في أوطانها ومجتمعاتها الحافلة بالتعدد والتنوع والتي جاءت الشريعة الإسلامية السمحة من أجل إعمارها والرقي بها في مدارج الفلاح والنجاح.

قال تعالى: (**لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**) (الممتحنة:٨)، والدين في المقام يتسع ليشمل العقائد فضلاً عن الأحكام والتشريعات، ذلك أن لفظ الدين في القرآن مقيد بقرائن المقام غير مطلق، فثمة أكثر من معنى لهذه اللفظة، لكنّ الملفت للنظر هو أن الآية لم تخصص جماعة بعينها، كأن يكونوا يهودًا أو نصارى أو صابئة أو مجوس أو مسلمين؛ بل المهم أنهم لم يقاتلوا المسلمين بالدين ولم يخرجوهم من ديارهم بالتهجير والإبعاد والإجلاء، فمثل هؤلاء لم ينه الله المسلمين أن يبروهم ويقسطوا إليهم جزاءً لحسن سمتهم وجودة صنيعهم بالمسلمين الذين يجاورونهم.

إذن القرآن يحث المسلمين على التعايش السلمي مع بقية الأقوام بصرف النظر عن عقائدهم التي يعتقدون بها.

الخاتمة:

ونختم بحثنا بثلاثة أسس اعتمدت عليها روح التسامح والتعايش السلمي:

١- إشاعة ثقافة التسامح والتعايش السلمي بين مختلف أهل الأديان والطوائف، تلكم الثقافة التي أرساها القرآن العظيم كما وردت في الكثير من آياته المباركة..

٢- نبذ العنف والقتال الذي يوقعه مسلمون وغير مسلمين على المسلمين بدعاوى متنوعة، لإفشاء روح التسامح بين جميع المذاهب والأديان المختلفة في العقيدة والرأي.

٣- تأمين المسلمين في ديارهم، وذلك بعدم تعرّضهم إلى التهجير القسري الذي قد يقوم به مسلمون أو غير مسلمين.

٤- الإيمان بأن الله تعالى جعل الناس غير متكافئين في الإمكانات والاستعدادات والقابليات، فالوحدة التي يتحدثون عنها تخالف فطرة الناس التي فطرهم الله عليها. قال تعالى: (**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) (هود:١١٨- ١١٩)، إنّ الاختلاف الحاصل عند الناس فيما يتعلق بالعقائد التي يتبنونها، والثقافات التي يتخذونها لا توجب الشحناء والتباغض؛ بل توجب التعايش والتآلف.

---

١) نظام الحكم في الإسلام/الشيخ المنتظري/ ص٤٠٩.

٢) تفسير مجمع البيان/ الطبرسي/ ج٤ص٤١٥.

٣) تفسير جوامع الجامع/ الشيخ الطبرسي/ ج١ص١٣٩.

٤) الأمالي/ الشيخ الصدوق/ ص٢٦٩.

٥) الكشاف/ الزمخشري/ ج٢ص٤٥٨.

حكاية مستبصر

علي أبوبكر الحبشي
(شيّعني البخاري)

مولده ونشأته:

ولد عام ١٩٧٨م بمدينة مالانك في أندونيسيا، نشأ في أوساط عائلة مسلمة تعتنق المذهب الشافعي.

السعي لمعرفة الحقّ:

يقول الأخ علي الحبشي: بعد بلوغي مرحلة النمو والنضوج الفكري وتفتح الذهنية لاكتساب المعارف، زاد عندي حبّ الاستطلاع حول مباني العقيدة الإسلامية وآراء المذاهب فيها، لاسيما في ما يتعلق بالأصول وخصوصًا التوحيد والعدل الإلهي، فعكفت على المطالعة في هذا المجال حتى تبيّن لي أنّ آراء الأشاعرة والمعتزلة غير متّسقة ومتناقضة ومتأرجحة بين الجبر وسلب الاختيار، وبين التفويض وحرية الاختيار، فزادت حيرتي لاسيما بعد أن وجدت استفساراتي وأسئلتي لم تجد الإجابات المقنعة، بل لم تلق تجاوبًا ملحوظًا من قبل علماء مذهبي.

فانعطفت في مسيرة بحثي باتجاه كتب الحديث لعلّي أجدُ ضالتي فيها، وأول ما بدأت بكتاب صحيح البخاري ـ لاعتقادي بصحّة كل ما فيه، وأنّه كتاب لا يفوقه سوى القرآن ـ باعتباره الجامع لمعظم أحاديث النبيّ ﷺ في مختلف المجالات، بصورة لا شائبة فيها، لكنّني بمجرد أن تأملت وأمعنت النظر في أبوابه وفصوله، تغيّرت رؤيتي له.

صحيح البخاري عند أبناء العامة:

إنّ أبناء العامّة يعتبرون صحيحيّ البخاري ومسلم من أصحّ الكتب وأكثرها اعتبارًا وضبطًا بعد القرآن الكريم! ولذلك اعتمدوا عليهما تمام الاعتماد، واهتموا بهما غاية الاهتمام، حتى غالوا فيهما وبالغوا في إطرائهما، فصححوا كل ما ورد فيهما، وأنزلوهما بمنزلة عجيبة، بحيث لم يجوّزوا نقدهما من حيث المتن أو السند! وذلك لأنّهم يعتقدون أنّ ما فيهما هو من نطق رسول الله ﷺ، وإن الذين رووا هذه الأحاديث جازوا القنطرة!

نظرة في صحيح البخاري:

يقول الأخ علي الحبشي: كشفت لي دراستي المعمقة لصحيح البخاري وشروحه أمورًا لم أكن

أتوقّعها من قبل، فإنها أدّت إلى فقدان اعتبار هذا الكتاب عندي، والباحث المدقق، يجد في أحاديث البخاري وأسانيده من الخلل والضعف ما يوجب سقوط الكثير من رواياته، وبالخصوص بعد النظر لأقوال علماء الجرح والتعديل من أهل العامة في هذا المجال، فقال شعبة بن الحجاج: ممن اشتهر بالتدليس أبو هريرة، وقد اعتمد عليه البخاري أكثر من جميع الصحابة!

فهذه المؤاخذات على صحيح البخاري لا يمكن غضّ الطرف عنها، لأنّ ضعف قسم من رجاله وعدم توثيقهم ـ فضلًا، عن روايته واعتماده على ضعاف الإيمان والخوارج والنواصب ـ تجعل المرء غير مطمئن بالركون إليه.

كما يدرك أن محمد بن إسماعيل البخاري قد تحكّمت الطائفية والعصبية المقيتة في عقيدته! حيث لم يرو حديثًا واحدًا، عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، الذي أقر المخالف والمؤالف بفضله وسعة علمه ونقاء منهجه.

وتوجد أسباب أخرى تقلّل من قيمة صحيح البخاري العلمية، منها: الفترة الزمنية الطويلة الممتدة بين صدور الأحاديث النبوية الشريفة وتاريخ تدوينها، وما تخلّل تلك الفترة من الدسّ والوضع والتحريف والحذف وما شابه ذلك! فلهذا تجد هذا الكتاب يعج بروايات شاذّة ليس لها إلّا إسناد واحد، كما يعج بالإسرائيليات الكثيرة، فضلاً عن الروايات القادحة بصميم النبوّة، وتمس نفس شخص الرسول صلى الله عليه وآله، كشكه، وسهوه ونسيانه، وسحره لبعض الوقت، وشغفه ـ والعياذ بالله ـ بالغناء والغواني، وتعريه أمام الناس، وتفرجه ومشاهدته للرقص!!

ومنها تقطيعه للأحاديث وانتخاب ما يتمشى منها مع ذوقه ورأيه، وحذف عبارات من مقدمة الحديث أو نهايته، ومنها نقله جملة من الأحاديث بالمعنى وعدم روايتها باللفظ، وكذا تغطيته وتعتيمه على بعض الأسماء وإتيانه لها بشكل مجهول بكلمة (فلان)! ومنها تكميل كتاب صحيح البخاري وتتميمه من قبل الآخرين! ونسبة الكتاب كله إلى محمّد بن إسماعيل البخاري فرضية لا أكثر! هذا فضلًا عن كثير من الأحاديث المخالفة صراحة للأدلّة العقلية والنقلية.

وقد نقد بعض علماء العامة صحيح البخاري، منهم: أبو زرعة ـ المعدود من حفاظ الحديث وأعلام الرجال ـ . ومنهم: ابن همام، وكذلك أحمد أمين ـ الكاتب المصري ـ حيث قال: وقد ضعّف الحفاظ من رجال البخاري نحو ثمانين، وفي الواقع هذه مشكلة المشاكل.

البصيرة وإزالة الحجب عن النفس:

يختم السيد علي الحبشي حديثه قائلاً: دفعتني هذه الحقائق لأن أعيد النظر تمامًا حول كتاب البخاري ومؤلفه، فقد كان هذا الجامع مرجعًا روائيًا مهمًا بالنسبة لي، وإذا بي أجده مليئًا بالثغرات! فتابعت بحثي وكثّفت مطالعاتي لكثير من كتب الحديث، وأجريت مباحثات ومناقشات عديدة مع العلماء وأصحاب الاختصاص في المجال الفكري والعقائدي، فكانت النتائج باهرة بالنسبة لي، فقد زالت الحجب التي كانت تمنع بصيرتي من رؤية الحقّ، فاهتديت بعد ذلك وتشرفت باعتناق مذهب أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، ثم أعلنت استبصاري في التسعينات بمدينة بانجيل الأندونيسية.

(نقل بتصرف: عن موسوعة من حياة المستبصرين/ ج١ ص٤١٣/ مركز الأبحاث العقائدية)

في الذاكرة

شهر جمادى الأولى

٥ مولد السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام سنة ٥ هـ.

٦ واقعة مؤتة وشهادة جعفر الطيار عليه السلام سنة ٨ هـ.

٨ وفاة السيد محمد باقر الخونساري صاحب كتاب (روضات الجنات) سنة ١٣١٣ هـ.

٩ استشهاد الشهيد الأول (محمد بن مكي العاملي) سنة ٦٨٧ هـ.

١٠ واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ.

١١ ولادة الخواجة نصير الدين الطوسي سنة ٥٩٧ هـ.

١٣ شهادة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله (على رواية) سنة ١١ هـ.

١٤ دفن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام ليلًا حسب وصيتها.

١٥ ولادة الإمام زين العابدين عليه السلام (على رواية) سنة ٣٨ هـ.

١٥ فتح البصرة لأمير المؤمنين عليه السلام في حرب الجمل سنة ٣٦ هـ.

١٦ غزوة ذات الرقاع التي استمرت ثلاثة أيام وصلى بها المسلمون صلاة الخوف

١٩ سنة ٤ هـ.

٢٧ شهادة زيد بن صوحان رضي الله عنه من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام في حرب الجمل

٢٧ عام ٣٦ هـ.

٢٩ وفاة عبد المطلب جد النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وللرسول ثماني سنوات وشهران وعشرة أيام، الفاجعة الثانية في تفجير منارتي الإمامين العسكريين عليهما السلام عام ١٤٢٨ هـ.
وفاة السفير الثاني محمد بن عثمان العمري رضي الله عنه سنة ٣٠٥ هـ.

في الذاكرة

شهر جمادى الآخرة

٣ استشهاد فاطمة الزهراء عليها السلام (على رواية) سنة ١١ هـ.

٣ هلاك هارون (الرشيد) سنة ١٩٣ هـ.

٩ وفاة السيد عبد الحسين شرف الدين (صاحب كتاب المراجعات) سنة ١٣٧٧ هـ.

١٢ خروج النبي صلى الله عليه وآله إلى خيبر سنة ٧ هـ.

١٣ وفاة فاطمة بنت حزام (أم البنين) زوجة أمير المؤمنين عليه السلام سنة ٦٤ هـ.

١٥ ولادة الإمام السجاد عليه السلام سنة ٣٨ هـ (على رواية).

١٥ هلاك الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ.

١٨ وفاة الشيخ مرتضى الأنصاري قدس سره سنة ١٢٨١ هـ.

٢٠ ولادة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام السنة الخامسة للبعثة.

٢١ وفاة السيدة أم كلثوم بنت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام سنة ٦١ هـ بعد ٤ أشهر من واقعة الطف ورجوعها إلى المدينة.

٢٣ وفاة الشيخ جعفر بن سعيد (المحقق الحلي) (على رواية) سنة ٦٧٦ هـ.

٢٦ استشهاد الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام (على رواية) سنة ٢٥٤ هـ.

٢٩ وفاة السيد محمد البعاج (سبع الدجيل) ابن الإمام الهادي عليهما السلام سنة ٢٥٢ هـ.

وفاة السيد محمد بن الإمام علي الهادي عليه السلام

في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٢٥٢ هـ..

إنّ الإمامةَ إنْ عَدَتـكَ فلمْ تـكُنْ ... تـعدو فضائلَ شـخصِكَ المِقداما

قد كنتَ صدراً للعلومِ ومصدراً ... لولا البِـدا لأخيكَ كنتَ إمـامـــا

اسمه ونسبه وألقابه:

هو السيد أبو جعفر محمد بن الإمام علي الهادي بن الإمام محمد الجواد، سليل الإمامة وربيب بيت الوحي ومعدن الرسالة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. ولقب سبع الدجيل، وسبع الجزيرة، والبعّاج، وأخو العباس لكراماته التي حباه الله بها، فكلاهما باب الحوائج.

ولد في قرية يقال لها (صريا) في المدينة المنورة عام (٢١٢هـ)، وهذه القرية أسّسها الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، على بعد ثلاثة أميال من المدينة المنوّرة.

نشأ وترعرع السيد محمد في كنف والده الإمام علي الهادي عليه السلام وفي رعايته أربعاً وعشرين عاماً، وكانت تلك السنوات كافية لأن تجعل منه الصورة الواضحة لشخصية أبيه وأخيه عليهما السلام، والاكتساب منهما مكارم الأخلاق والصفات الحميدة، كما عاصر السيد محمد خمسة من الخلفاء العباسيين هم الواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز وقد توفي السيد محمد في خلافة الأخير، كما عاصر سيدنا الكثير من الأحداث الأليمة التي جرت على الأئمة الطاهرين عليهم السلام وما جرى على أهل بيته من فجائع وآلام ومآسٍ. نتيجة الضغط السياسي الذي مارسه العباسيون ضد

الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم.

كما عاصر ظهور فرق شذّت وانحرفت عن مبادئ الإسلام الصحيح المتمثل بالأئمة المعصومين عليهم السلام، فكانت معاناة سيدنا تتفاقم وهو يحسّ بأنه من المكلّفين بحفظ شريعة جده محمد صلى الله عليه وآله من الضلالات والبدع، فكان يبسط أشعة علمه الإلهي على الناس ويرشدهم إلى الصراط المستقيم ويرجعهم إلى جادة الصواب فكان من علماء آل محمد وفضلائهم، ومما يدل على فضله وعلمه إن من الشيعة من كان يعتقد إن الإمامة فيه بعد أبيه الهادي عليه السلام، إلّا أن هذه الفرقة اضمحلت ورجعت إلى أخيه الحسن العسكري بعد أن عرّفهم الإمام الهادي عليه السلام بالإمام المنصوص عليه من بعده وبخاصة بعد وفاة السيد محمد في حياة أبيه الهادي عليه السلام.

وفاته أو استشهاده

توفي سيدنا الجليل محمد بن الإمام علي الهادي عليه السلام سنة (٢٥٢هـ)، بسبب مرض شديد ألمَّ به ـ كما يشاع ـ و(لا نعلم سبب وفاة السيد محمد في تلك السن ونعتبر موته حتف أنفه مشكوكاً فيه لأن الأعداء كانوا ينتهزون كل فرصة لقطع خط الإمامة في أهل البيت عليهم السلام، وهو أمر ليس ببعيد على الخلفاء العباسيين فتأريخهم الدموي شاهد على جرائمهم بحق العلويين، فإن شخصية عظيمة مثل شخصية السيد محمد بما تمتلك من جلالة قدر وسمو إضافة إلى نسبها الرفيع وشيوع إنه الإمام بعد أبيه بين الناس من الطبيعي أن

تكون في رأس قائمة العباسيين ممن يخططون لتصفيته جسدياً وقد اعتمد هذا الرأي الشيخ باقر شريف القرشي في كتابه (حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ص٢٤-٢٥).

ألّف في حياة سيدنا وكراماته الكثير من الأعلام، كما كانت السيرة العظيمة لسيدنا الجليل مثار قرائح الشعراء في كل العصور فمدح ورثى وعدَّد مناقب السيد محمد الكثير من الشعراء.

المرقد الشريف

يعتبر مرقده الشريف مفزع اللائذين وملاذ اللاجئين وسطع كالشمس قبلة للزوار من كل مكان وفي كل زمان، وقد مرّ المرقد المقدس بالعديد من التجديدات والبناء في عصور متفاوتة إلى يومنا هذا.

مولد الزهراء

السيد محمد جمال الهاشمي

مولد الزهراء للإيمان عيدُ ... كل شيعي بذكراه سعيدُ
ذكريات الفجر في مطلعهِ ... تتجلى، ولنا فيه عهودُ
يوم كان الدين في منهاجهِ ... نغمة كل معانيها جديدُ
يتوخى السير بالتأريخ في ... أبحر مرفاها الأدنى بعيدُ
والفضا معصوصب، والأرض قد ... زلزلتها عاصفات ورعودُ
التقاليد وما أفتكها ... وقفت من دونه فهي سدودُ
والمرامي وهي في أطماعها ... كالعفاريت ترامت وهي سودُ
ورسول الله في دعوته ... يفزع الأحلام والناس هجودُ
يقظة الفطرة وحي رائع ... صاغه الله لنا فهو نشيدُ

* * * * *

مولد الزهراء في موكبهِ ... يتهادى، وبه الماضي يعودُ
يهزم الأوهام في ألطافهِ ... فالفيافي من معانيه ورودُ
ورمال البيد سالت عسجدًا ... والحصى فيه لئالٍ وعقودُ
واستطالت قمم المجد بها ... فهي في الشرق روابٍ ونجودُ
ولد الإنسان في أكنافها ... فهي أم للكرامات ولودُ
لم يكن من قبلها في ظلها ... للهدى عين، وللحقِّ وجودُ

عجبًا للصخر كيف انبثقت ... جانباه، فهما فضل وجودُ
قدس الإسلام في دستورهِ ... يورق الصخر وينشق الحديدُ

* * * * * *

مولد الزهراء هذا فابسمي ... أيها الشيعة، فالموسم عيدُ
ودعي عنك الأسى واحتفلي ... فيه، فالعيد به الحزن يبيدُ
واتركي الأمر إلى ربِّ السما ... فهو بالوضع خبيرٌ وشهيدُ
سوف ينجاب الدجى منهزمًا ... من سنا الفجر، فللفجرِ جنودُ
فإذا وجهها الله إلى ... أفق باد به الليل المبيدُ

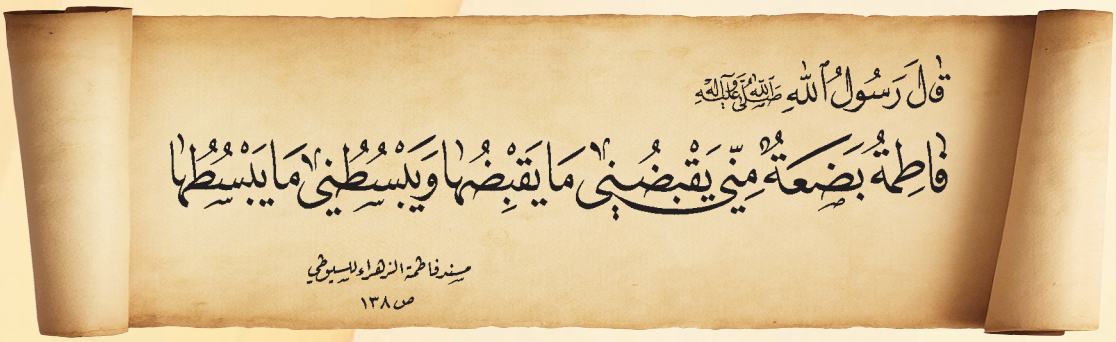

الإعجاز القرآني عند السيد المرتضى (دراسة في الصرفة أنموذجًا)

أ.د. الشيخ صاحب محمد حسين نصار
جامعة الكوفة /كلية الفقه

ينابيع

عاش السيد الشريف المرتضى (رح) في بغداد خلال فترة الحكم البويهي الذي بدأ سنة (٣٢٠ هـ) في العراق وفارس، وكانت هذه الفترة من فترات ضعف الخلافة العباسية وكانت مليئة بالصراعات السياسية، ولم يكن لهذه الصراعات آثار سلبية على النشاطات الفكرية والثقافية بل على العكس فقد شهدت هذه المرحلة حركة علمية واسعة ونشطة، خلفت ذخيرة كبيرة من المؤلفات والأعمال في كثير من المجالات العلمية والمعرفية، وكان لهذا الأمر عوامله الممهدة، منها:

١- اختلاط التراث الإسلامي بالإغريقي والسرياني والفارسي من خلال النقل والترجمة ما أدى إلى الامتزاج الثقافي ونشوء الكثير من المكتبات.

٢- المنافسة بين المعتزلة والأشاعرة، والمناظرات بين الفقهاء وأهل الكلام وبين أصحاب المذاهب والعقائد المختلفة، أدت إلى تطور العلوم وتطور الاتجاه نحو تدوين المصطلحات العلمية وأصول العلوم.[١]

فهذا وغيره كان له دور مهم في تنشيط الحركة الفكرية، إذ أتيح لأصحاب الاتجاهات المختلفة إبراز معتقداتهم وإثبات ما عندهم تجاه الطرف الآخر بكل ما لديهم من وسائل المناظرات والمناقشات العلمية أو تأليف الكتب والرسائل، وبمراجعة بسيطة لكتب التاريخ العلمي والأدبي التي اهتمت بتلك الفترة وبتراجم مفكريها كفهرست ابن النديم أو كتب رجال النجاشي والشيخ الطوسي أو طبقات أعلام الشيعة في القرن الرابع الهجري لآغا بزرك الطهراني أو تأسيس الشيعة لفنون الإسلام للسيد حسن الصدر وغيرها ـ نراها زاخرة بأسماء رجال العلم والأدب الذين نبغوا وشاركوا في خلق الازدهار الفكري والثقافي، مما يدل على أن آثار تلك النهضة انعكست على رجال المجتمع الإسلامي آنذاك.

وكان للشيعة الإمامية دور كبير في القيام بهذه النشاطات، فلقد نبغ ثلاثة من علماء الشيعة ومتكلميهم في هذه الفترة، وكان لهم دور مهم في الدفاع عن عقيدتهم وفكرهم، وهم كل من الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت٤١٣هـ)، وهو أستاذ الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)،

والسيد المرتضى نفسه (٤٣٦هـ)، والشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، وهؤلاء لهم تاريخ حافل بالتأليف والنشاط العلمي.

ولم يقتصر التطور الفكري العلمي على الدراسات الكلامية أو الفقهية وإنما شمل الدراسات القرآنية وما يرتبط بها من دراسة لغوية وبلاغية، ومنها ما بحث في مسألة إعجاز القرآن الذي كان يتطلب دراسة أساليب النظم القرآني، وبيان ما تتميز به هذه الأساليب من خصائص بيانية وبلاغية[٢].

الإعجاز القرآني:

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ وقد تحدى العرب بأن يأتوا ولو بسورة واحدة مثله، والواقع التاريخي شاهد حيّ على عجز الجميع عن الإتيان بمثل آياته المباركة إلى يومنا هذا، لقوله تعالى: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ (الإسراء: ٨٨).

ومنذ الصدر الأول للإسلام بدأ نشوء الأبحاث العلمية في القرآن، فأقبل القُراء والمحدثون والفقهاء واللغويون والبلغاء على دراسة كتاب الله تعالى وكتبوا عنه أبحاثًا علمية قيّمة أسموها علوم القرآن، وهذه العلوم كثيرة وفيها عناوين مزيجة، منها علم التفسير، علم آيات الأحكام، علم الإعجاز، علم المكي والمدني، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات، والرسم القرآني، والإعراب والبلاغة، وغير ذلك من المعارف، حيث استمر التدوين والبحث العلمي من العصور الأولى إلى يومنا هذا[٣].

وكان البحث في إعجاز القرآن من أهم فروع علوم القرآن، لأنه يتركز على أهم ركيزة وهي النظر في القرآن الكريم، باعتباره حجة على جميع البشر، لأنه من الله تعالى، ودليل كونه من الله إعجازه ...والقرآن الكريم بهذا الاعتبار صار دليل صدق نبوة الرسول الأمين وقد تكفل علم الإعجاز ببيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وشروط المعجزة ووجه الحاجة إليها.

وبعبارة أخرى فالقرآن معجزة من كل الوجوه، وبعضهم أتى إعجازه إلى ثمانين وجهًا، فالقرآن دالة البلغاء، وضالة الحكماء، وحجة الفقهاء، ومصدر الأحكام، ومورد علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة، ومنهل الأدباء والفضلاء، كشف عن دراسة أخبار الماضين وتحدث عن الخليقة منذ أن بدأ الله تعالى الخلق والتكوين، وصوّر الإنسان، وبسط الأرض ورفع السماء، وأخبر عما وراء هذه الحياة الدنيا من حياة البرزخ وما بعد النشور من أهوال القيامة وصور مشاهد الجنة والنار وأحوال أهلها[٤].

إن صور الإعجاز القرآني ظلت سرًا محوريًا دارت حولها الأبحاث وتعددت بشأنها الدراسات، إلّا أن التركيز على الإعجاز اللغوي البياني للقرآن، لأنه هو المحور للإعجاز في عصر النزول وعند فصحاء الجزيرة وبلغائهم[٥].

ومن هنا شهدت القرون الإسلامية الأولى نتاجات أدبية ناشطة أو متميزة واسعة تبحث في القرآن من حيث الأسلوب والألفاظ والجمال البياني في محاولة للتعرف على ذلك المعجز، وصارت

الدراسات البلاغية مقدمة لدراسة القرآن وتفسيره بل صرح بعضهم (بأن الإعجاز مصطلح نقدي ذو أصل بلاغي مرتبط بالدراسات القرآنية... وتشكل الدراسات في إعجاز القران فرعًا أساسيًا في شجرة البلاغة)[٦].

على أيةِ حال فإن الإيمان بسِرّ إعجاز القرآن فيِ فصاحته وبلاغته، أدى إلى إيجاد حركة تأليف كبيرة في لغة القرآن وفصاحته، واهتدى بعض من المؤلفين إلى أن الإعجاز كاف في النظم القرآني، أي في طريقة صياغة العبارة وفي فصاحة الألفاظ، ومن هنا نشأت (نظرية النظم) في دراسات الإعجاز.

والنظم يعني صياغة الكلام، ويظهر أن هذه الكلمة استعملت بهذا المعنى في الدراسات الأدبية النقدية وكلها تدل على الخلق والإبداع الفني في المصطلح الحديث[٧].

واستمر مصطلح النظم متداولًا في لغة الأدباء والعلماء، ولعل سيبويه (ت١٨٠هـ) من أقدم مستخدمي هذا المصطلح، حينما تحدث عن معنى النظم وائتلاف الكلام وما يفيض إلى صحته وفساده وحسنه وقيمه[٨]، حتى إذا جاء عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) كان أوسع من كتب في الموضوع من خلال كتابه (دلائل الإعجاز)، وظل موضوع النظم وصلته بالإعجاز بعده بدون إضافة تذكر أو تجديد ذي شأن حتى العصر الحديث.

وهناك من يقول إن الجاحظ (ت٢٥٥هـ) استعمل هذا المصطلح، فالنظم (مصطلح كان شائعًا لدى الأشاعرة الذين كان عبد القاهر واحدًا منهم، وقد كانوا يعللون إعجاز القرآن بنظمه، ومع أن الجاحظ كان أول من وضع هذا الاصطلاح وعلل به الإعجاز القرآني.

وإن الجبّائي المعتزلي وضع مكانه (الفصاحة) وردها إلى حسن اللفظ وحسن المعنى، وأن عبد الجبار نفى أن يكون مرجع الفصاحة إلى اللفظ والمعنى أو الصورة البيانية، وإنما إلى الصياغة النحوية للتعبير وإلى الأسلوب. فإن عبد القاهر الجرجاني هو الذي سار بهذه الأوليات إلى اكتمالها في نظرية، فذهب أن اللفظة المفردة من حيث لفظة لا وزن لها في فصاحة أو بلاغة أو بيان، كما أنكر أن تكون للمعنى مزيّة في البلاغة، وإنما المعول على النظم والصياغة والأسلوب)[٩].

فكرة الصرفة

أوضح السيد المرتضى مذهبه في الإعجاز بـ (الصرفة) في كتابه المعروف (الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة))، وأشار إلى ذلك في كتابه (جمل العلم والعمل) في باب ما يجب الاعتقاد في النبوة، بقوله: (وقد دلّ الله تعالى على صدق رسوله محمد ﷺ بالقرآن، لأن ظهوره من جهته معلوم ضرورة، وتحديه العرب والعجم معلوم أيضًا ضرورة، وارتفاع معارضته أيضًا بقريب من الضرورة، فإن ذلك التعذر معلوم بأدنى نظر (على أنه لا دلالة في تعذر معارضته. فإما أن يكون القرآن من فعله تعالى على سبيل التصديق له فيكون هو العلم المعجز، أو يكون تعالى صرف القوم عن معارضته فيكون الصرف هو العلم الدال على النبوة، الصحيح من ذلك وبسطناه)[١٠]. إن الرأي السائد بين المسلمين في إعجاز القرآن كونه في

الطبيعة العليا من الفصاحة والدرجة القصوى من البلاغة مع ماله من النظم الفريد والأسلوب البديع، وإلى جوار سيادة فكرة النظم واستمرارها الطويل كانت ثمة فكرة أخرى في تفسير الإعجاز لكنها أقل شيوعًا هي فكرة (الصرفة)، (وحاصل هذا المذهب هو أنه ليس الإتيان بمثل القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة وروعة النظم وبداعة الأسلوب خارجًا عن طوق القدرة البشرية، إنما العجز والهزيمة في حلبة المبارزة لأمر آخر هو حيلولته سبحانه بينهم وبين الإتيان بمثله، فالله سبحانه لأجل إثبات التحدي حال بين الفصحاء العرب وبلغائهم وبين الاتيان بمثله)[١١].

وقد توضحت فكرة الصرفة بصورة أشمل من خلال بيان المصطلحات المرتبطة بالمسائل الاعتقادية بما نصه: (والواقع أن هذه الفكرة قد نشأت في بدايتها في بيئة المتكلمين منذ أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث، لأن مسألة إعجاز القرآن من المسائل الاعتقادية المتصلة بالنبوة، ودخلت في الجدل والنقاش، وكان المعتزلة من أبرز من عني بالنظر العقلي في مسائل الاعتقاد)، فلذا كان المعتزلة هم من أبرز من وضع هذا المصطلح ونشأت الفكرة في بيئتهم[١٢].

وهنا تحديدًا من يرى أن المذهب قد نجم في القرن الثالث، وأقدم من نُسب إليه من المعتزلة هو إبراهيم بن سيّار النظام (٢٢٤هـ)، إلّا أنه لم يعالجها بشيء من البيان والتفصيل. وقد اختار هذا المذهب من المعتزلة أكثر من واحد غير النظام، ومن الإمامية الشيخ المفيد، والسيد المرتضى في رسالة أسماها (الموضح من جهة إعجاز القرآن)، والشيخ الطوسي في شرحه (جمل العلم والعمل للسيد المرتضى) ورجع عنه في كتاب (الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد)، وابن سنان الخفاجي (٤٦٤هـ) في كتابه (سرّ الفصاحة)[١٣].

ولتوضيح ذلك بصورة دقيقة لابد من معرفة مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم الصرفة في اللغة والاصطلاح:

أولًا: مفهوم الصرفة في اللغة:

الصَّرف والصَّرفة تفيد مادة هذه اللفظة بمعنى (رد العزيمة)، قال الراغب في مفرداته: الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره[١٤].

ثانيًا: مفهوم الصرفة في الاصطلاح:

واصطلاحًا عند المتكلمين: (معناه أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة)[١٥].

ويمكن توضيح كلام القائلين بالصرفة بعبارة أوفى: (وهو أن القرآن الكريم يتكون من مجموعة من الكلمات والحروف قد سطرت ونظمت بنظم خاص، وهذا النظم مهما علا شأنه وفاق سائر نظوم الكلام فإنه بنفسه لا يكون معجزًا، نعم إنه يُعد معجزة ومعجزًا حينما يسلب الله سبحانه وتعالى دواعي الكفار وغيرهم عن معارضته، فإعجاز نص القرآن لا لنفسه وذاته وإنما لسبب خارجي طرأ على الناس سبّبَ تثبيط عزائم القاصدين للمجاراة، وقبول التحدي هو في نفسه إعجاز خارق للعادة، وإذا كان الإنسان قادرًا على أن يقول (الحمد) فهو قادر على أن يقول

(اللّٰه)، ثم كذلك القول في كل حرف، وإذا كان هكذا فالجميع مقدورًا عليه لولا أن اللّٰه تعالى أعجزه عنه)[١٦].

المطلب الثاني: رأي السيد الشريف المرتضى في الصرفة:

وإليك خلاصة مذهب الشريف المرتضى في الصرفة بناءً على ما جاء في كتابه الموضح وكما يأتي:

١- يعد نص القرآن معجزًا للبرية، وعلمًا دالًا على النبوة وصدق الدعوة.

٢- فصاحته خرقت عادة العرب وبانت من فصاحتهم.

٣- إن القرآن مختص بطريقة النظم مفارقة لسائر نظوم الكلام، وهذا لا تكليف فيه وواضح الدلالة، لكن لا يكفي النظم وحده في التحدي به، بل لابد أن يقع التحدي بالنظم والفصاحة معًا، أي أن التحدي وقع بالفصاحة والإتيان بمثله في فصاحته وطريقته في النظم معًا لا مجرد النظم وحده.

٤- إن التحدي وقع بحسب عرف القوم وعادتهم من حيث أن اللفظ به قد أطلق وقد علمنا أنه لا عهد لهم ولا عادة، بأن يتحدى بعضهم بعضًا بطريقة نظم الكلام دون فصاحته ومعانيه، وأن الفصاحة هي المقدمة عندهم بالتحدي والنظم تابع لها.

٥ - التحدي لا يجوز أن يكون واقعًا بأمر لا يعلم تعذره أو تسهله، وأنه لابد أن يكون ما دُعُوا إلى فعله مما يرتفع الشك في أمره، وخصوصًا أن التحدي للعرب استقر آخراً على مقدار ثلاث آيات قصار.

٦- الصرفة على هذا إنما كانت بسلب اللّٰه تعالى كل من رام المعارضة في فصاحته وطريقته في النظم، فلا يجدوا العلم بالفصاحة في تلك الحال.

٧- وإذا لم يقصد المعارضة وجرى على شاكلته في نظم الشعر ووصف الخطيب خلي بينه وبين علومه.

٨ - وما يقال أن هذا القول يوجب أن يكون القرآن في الحقيقة غير معجز، وأن يكون المعجز هو الصرف عن معارضته فنقول له: بل إن القرآن هو المعجز من حيث كان وجود مثله في فصاحته وطريقة نظمه متعذرًا عن الخلق من دون اعتبار سبب التعذر لأن السبب وإن يعود عندنا إلى الصرف، فالتعذر حاصل على كل حال.

٩- وهكذا ثبت أن القرآن هو العلم على صدق دعوى النبي ﷺ وأن معارضته متعذرة على الخلق، فالتحدي بالقرآن وقعود العرب عن المعارضة يدلّان على تعذرهما عليهم وأن التعذر لا بد أن يكون منسوبًا إلى صرفهم عن المعارضة.

١٠- والقول بأن الصرفة مخالفة لإجماع أهل النظر غير تام لمخالفة النظام ومن وافقه عباد بن سلمان وهشام بن عمرو الفوطي وأصحابهم فإنهم خارجون عن الإجماع.

تعقيب ومناقشة للصرفة والقائلين بخطورة هذا الرأي من حيث آثاره وتبعاته وما يترتب عليه من القول بأن نص القرآن لا يعد معجزة في جوهره وذاته ولا علمًا لرسول اللّٰه ﷺ وإنما هو آية من جهة عارض خارجي عرض على المتحدي به فسلبه القدرة على المعارضة جبرًا، بعد أن سلب اختياره وإرادته. ولتباين المذاهب الاعتقادية بين المتكلمين، واجه القول بالصرفة استنكارًا واسعًا منذ خرج إلى الأوساط العلمية في بغداد في بدايات

القرن الثالث الهجري.

فانبرى جماعة للرد عليه، والتشهير به، والطعن بأدلته، وتسفيه قائليه واستمر الحال إلى يومنا هذا[١٧].

وقد انبرى البعض لتوضيح ذلك وبيانه بما نصه:

لو كان عجز العرب من المقابلة بسبب أمر طارئ أبطل قواهم البيانية فعلى الأقل إنهم حاولوا في ذلك أو أعلنوا ذلك ولكنهم كانوا مستحفظين لفصاحة القرآن وظهر منهم التعجب لبلاغته وفصاحته فلو كانوا عاجزين لأمر خارجي لالتمسوا العذر لأنفسهم وقللوا من شان القرآن في ذاته[١٨].

---

١) رياض العلماء وحياض الفضلاء/عبدالله الأصفهاني/٤: ١٣.
٢) الشريف المرتضى ثقافته وأدبه نقده/أحمد محمد المعتوق/٥- ٤٥.
٣) موجز علوم القران/د. داود العطار/ص١٩ ـ٣٥.
٤) م.ن/ص٤٧ – ٥٨.
٥) محاضرات الإلهيات/ جعفرالسبحاني/ ص ٣٠٦.
٦) مصطلحات نقدية في التراث العربي/محمد عزام/ص٥٩.
٧) م.ن/ص٥١٠.
٨) الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)، السيد المرتضى/ص١٠.
٩) مصطلحات نقدية في التراث العربي/ ص٥١٥.
١٠) الشريف المرتضى علي بن الحسين/ جمل العلم والعمل من التراث الإسلامي/ص٤١.
١١) محاضرات الإلهيات/ جعفر السبحاني/ ص ٣١٣.
١٢) مصطلحات نقدية في التراث العربي/محمد عزام/ ص٥١٥.
١٣) الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)، ما ذكر في المقدمة.
١٤) مفردات غريب القرآن/الراغب الأصفهاني/ مادة (صرف).
١٥) محاضرات الإلهيات/ص٣١٣.
١٦) الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)/ص ١١- ١٢.
١٧) الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)/ المقدمة الخاصة بالمحقق.
١٨) محاضرات الإلهيات/ص ٣١٤.

للفضيلة نجومها

عين علماء الشام
أبو الصلاح الحلبي ت ٤٤٧هـ

الباحث : حامد شاكر منيب

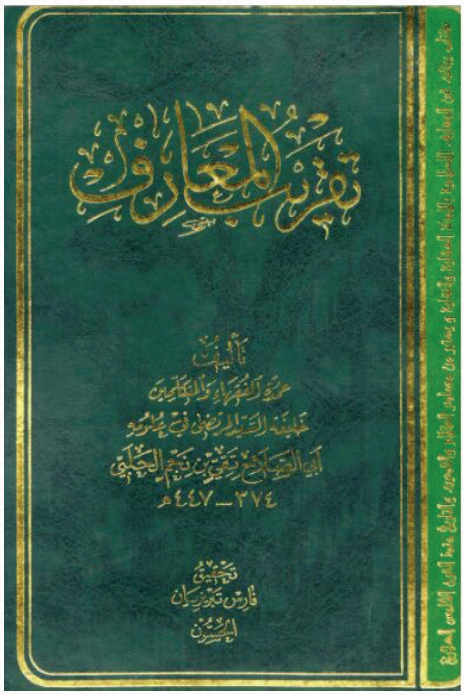

ينابيع من أعاظم علماء الشيعة وشيوخهم في القرن الخامس الهجري، علامة في فقه أهل البيت عليهم السلام، الشيخ الأقدم العالم الفاضل الفقيه المحدث النبيه، ثقة جليل عظيم الشأن، عين علماء الشام والمشار إليه بالعلم والبيان والجمع بين علوم الأديان وعلوم الأبدان. كان من مشاهير فقهاء حلب، ومعروفًا فيها بـ (خليفة المرتضى) في علومه، لأنه منصوب من قبل أستاذه (المرتضى) في البلاد الحلبية. تميز بالصلاح والزهد والتقشف الزائد والقناعة مع الحرمة العظيمة والجلالة، إنه الشيخ الأجل أبو الصلاح الحلبي قدس سره.

اسمه:

تقي الدين بن نجم الدين بن عبد الله بن محمد الحلبي، ويلقب بالحلبي نسبة إلى مدينة حلب، كما يلقب أيضاً بالشامي نسبة إلى بلاد الشام. ويكنى بـ (أبي الصلاح).

مولده:

اتفقت المصادر على أن ولادته كانت في مدينة حلب. سنة ٣٧٤ للهجرة على

الأغلب. وحلب مدينة مشهورة في حدود الشام. طيبة الهواء، كثيرة الخيرات، صحيحة التربة، يزرع بأرضها القطن والسمسم والمشمش والتين وتسقى بماء المطر. وفي مدينة حلب مقامان للخليل عليه السلام يزاران إلى الآن[1].

وكانت مدينة حلب قديمًا محطاً لعلماء الشيعة الإمامية، وأهلها من أسلم أهالي الشامات قلبًا وأجودهم ذكاءً وفضلًا وفهمًا. حيث دخلها التشيع قبل عهد الحمدانيين (٢٩٣ - ٣٩٢) ولكنه انتشر وقوي فيها على عهدهم وذلك لأن الدولة الحمدانية كانت من الدول الشيعية، وكان الحمدانيون يجاهرون بالتشيع وينصرونه ويكرمون الأدباء والشعراء والعلماء والمحدثين، وخصوصًا الذين يجاهرون منهم بالتشيع وولاء أهل البيت. ومن أبرز شعراء الحمدانيين أبو فراس الحمداني (٣٢٠ -٣٥٧) وله القصيدة الميمية الطائرة الصيت التي مستهلها:

الحق مهتضم والدين مختـرم
وفيء آل رسول الله مقتسم

ولأجل تلك المناصرة، ووجود المناخ المساعد، أصبح التشيع مذهبًا بارزًا في تلك البلدة الخصبة ممتدًا إلى ضواحيها كالموصل، وتشهد بذلك نصوص كثير من المؤرخين.

يقول ياقوت الحموي وهو يذكر حلب: والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية [2].

وقال ابن كثير الشامي في تاريخه ـ عن مدينة حلب ـ: كان مذهب الرفض فيها في أيام سلطنة الأمير سيف الدولة بن حمدان رائجًا رواجًا تامًا[3].

وقال مؤلف نهر الذهب: لم يزل الشيعة بعد عهد سيف الدولة في تصلبهم حتى حل عصبتهم وأبطل أعمالهم نور الدين (٥٤٣ هـ) ومن ذلك الوقت ضعف أمرهم غير أنهم ما برحوا يجاهرون بمعتقداتهم إلى حدود (٦٠٠) فأخفوها.

ثم ذكر أن مصطفى بن يحيى بن حاتم

الحلبي الشهير بـ (طه زاده) فتك بهم في حدود الألف فأخفوا أمرهم، وذكر بعض ما يفعله الحلبيون مع الشيعة من الأعمال الوحشية والمخازي والقبائح التي سودت وجه الإنسانية ويخجل القلم من نقلها.

وقال القاضي المرعشي: (أهل حلب كانوا في الأصل شيعة وإلى أواخر زمان الخلفاء العباسية كانوا على مذهب الإمامية، وقد أُجبروا في زمان انتقال تلك الولاية إلى حكم السلاطين العثمانية على ترك مذهبهم) وما مر من فعل (طه زاده) يؤيد ذلك فإن استيلاء العثمانيين على حلب كان في أوائل المائة العاشرة.

وقال مؤلف نهر الذهب: إنه لم يزل يوجد في حلب عدة بيوت معلومة يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع ويتهابون الزواج معهم مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة أهل السنة[٤].

وعلى هذا ليس غريبًا أن يبرز المترجم له ـ أبو الصلاح الحلبي ـ قطبًا من أقطاب الإمامية وعلمًا من أعلامها من هذه المدينة الموالية لأهل البيت عليهم السلام.

الثناء عليه:

أثنى على الشيخ أبي الصلاح الحلبي كثير من العلماء، منهم: أُستاذه الشيخ الطوسي حيث قال عنه: (ثقة، له كتب، قرأ علينا وعلى المرتضى)[٥].

وقال عنه العلامة الحلي: (ثقة عين، له تصانيف حسنة ذكرناها في الكتاب الكبير، قرأ على الشيخ الطوسي رحمه الله وعلى المرتضى قدس الله روحه)[٦].

وقال الفقيه يحيى بن سعيد الحلي: (الفقيه البارع أبو الصلاح الحلبي صاحب الكافي في الفقه)[٧].

وكان الفيض الكاشاني كلما ذكره في كتابه الوافي والمكون من ٢٦ جزءًا يقول عنه: (الفقيه الأقدم أبي الصلاح الحلبي).

وقال الشيخ المنتظري عنه: أبو الصلاح الحلبي، من أعاظم فقهاء الشيعة الإمامية[٨].

وقال ابن داود عنه: (عظيم القدر، من علماء مشايخ الشيعة)[٩].

وقد اتفقت كلمة العلماء والباحثين على إطلاق اسم التقي على أبي الصلاح الحلبي، كما اطلقوا اسم علم الهدى على الشريف المرتضى، وشيخ الطائفة على الشيخ الطوسي والعلامة على العلامة الحلي، والشيخ الكبير على الشيخ جعفر كاشف الغطاء رحمهم الله جميعًا...وهكذا.

كان الشيخ الحلبي من أذكياء الناس وأفقههم وأكثرهم تفننًا، ومن هنا نعرف أنه هاجر إلى بغداد في تلك الحقبة الزمنية التي كانت بغداد فيها حاضرة من حواضر العلم الهامة في ذلك العصر. كما كان خليفة السيد المرتضى في البلاد الحلبية.

مقامه العلمي:

نستطيع أن نتوصل إلى مقدار ما من مقامه العلمي السامي عند ملاحظة مؤلفاته بدقة وإمعان نظر... ففي كتابه (الكافي في الفقه) نرى عمقه في المطالب الفقهية مع سلاسة عبارته، ووضع مقدمات لطيفة للكتاب تدل على قدرته العلمية العالية في شتى المجالات.

وفي كتابه (تقريب المعارف) يلاحظ القارئ مدى سعته العلمية على المطالب الكلامية التي أوردها، بحيث يلقم المخالف حجرًا لا يستطيع الوقوف أمامها، ففيه من المطالب المنطقية والفلسفية العميقة، وتطرق إلى مسائل بكر لم يسبقه فيها أحد.

وكان سلار الديلمي إذا استُفتيَ من حلب يقول: (عندكم التقي). وهذا يدل على مكانته العلمية، لأن هذا الفعل صادر من سلار وهو أحد علماء الشيعة من أساتذته.

أما ابن ادريس الحلي فلقد ذكر الشيخ أبي الصلاح الحلبي في كتابه (السرائر) غير مرة، منها قوله: (من جملة أصحابنا الحلبيين من تلامذة المرتضى). وقال أيضًا: (الفقيه أبو الصلاح الحلبي تلميذ السيد المرتضى رحمه الله)[١٠].

وقال عنه الشهيد الأول: (الشيخ الإمام السعيد خليفة المرتضى رضي الله عنه في علومه)[١١].

وقال المحقق الحلي: (هو من أعيان فقهائنا)[١٢]. وقال أيضًا: (وهو أحد الأعيان ولا بأس باتباع فتواه)[١٣].

وقال عنه الشهيد الثاني: الشيخ الفقيه السعيد خليفة المرتضى في البلاد الحلبية[١٤].

وقال الشيخ عباس القمي عنه: الشيخ الأقدم، الفاضل الفقيه المحدث، الثقة الجليل، من كبار علمائنا الإمامية[١٥]. وقال أيضًا: ثقة جليل، عظيم الشأن، . . . عالم فقيه محدث، من كبار الشيوخ وعلماء الشيعة[١٦].

كما قال عنه السيد الخوانساري: الشيخ الفقيه النبيه، الوجيه السامي . . . الثقة العين، الفاضل الإمامي، كان من مشاهير فقهاء حلب، ومنعوتًا بخليفة المرتضى في علومه[١٧].

وكذلك أطرى عليه كثير من علمائنا ولا يسع المقام لذكر أقوالهم فيه، منهم: المحقق الكركي، المحدث النوري، الحر العاملي، الشيخ أسد الله الدزفولي، الشيخ المجلسي، التنكابني، القاضي عبد العزيز، والبحراني، والمحدث القمي، والتستري في المقابيس، وغيرهم الكثير[١٨].

وكذلك قال عنه ابن حجر في لسان الميزان/ج٢ص٧١: ... الحلبي أبو الصلاح مشهور بكنيته من علماء الإمامية، ...طلب وتمهر وصنف وأخذ عن أبي جعفر الطوسي وغيره ورحل إلى العراق فحمل عن الشريف المرتضى.

وأيضًا قال عنه الذهبي في تاريخه: التقي ابن نجم بن عبد الله أبو الصلاح الحلبي شيخ الشيعة وعالم الرافضة بالشام.

وكانت له يد طولى في علم الأبدان، حيث قرنه بعلم الأديان، فكان علماً في علم الأبدان كما هو علم في علم الأديان. فقد قال عنه يحيى بن أبي طي الحلبي في تاريخه: هو عين علماء الشام والمشار إليه بالعلم والبيان والجمع بين علوم الأديان وعلوم الأبدان[١٩].

مشايخه وأساتذته:

لم تذكر المصادر المتوفرة لدينا من أساتذته ومن روى عنهم سوى أربع:

الأول: السيد علم الهدى الشريف المرتضى، وقد دخل – الحلبي - العراق ثلاث مرات فقرأ على الشريف المرتضى.

الثاني: الشيخ الطوسي. نص عليه الشيخ الطوسي بنفسه.

الثالث: سلار الديلمي: وكان إذا استفتي من حلب يقول: عندكم التقي.

الرابع: أبو الحسن محمد بن محمد[٢٠].

تلامذته والراوون عنه[٢١]:

أما تلامذته والراوون عنه فقد حضر درسه جمع غفير من العلماء، منهم:

الأول: أبو القاسم سعد الدين بن البراج، المتوفى سنة ٤٨١هـ كان قاضيًا بطرابلس.

الثاني: الشيخ عز الدين عبد العزيز بن أبي كامل الطرابلسي القاضي.

الثالث: الداعي ابن زيد بن علي بن الحسين ألأفطسي الحسيني الآوي.

الرابع: الشيخ أبو محمد ريحان بن عبد الله الحبشي المصري. كان عالمًا فقيهًا محدثًا زاهدًا.

الخامس: الشيخ عبد الرحمن الخزاعي الرازي.

السادس: الشيخ التواب ابن الحسن الخشاب البصري. فقيه مقري صالح.

السابع: الشهيد المصلوب في سبيل الله أبو الحسن ثابت بن أسلم (أحمد) بن عبد الوهاب الحلبي. من كبار النحاة، وأحد علماء الشيعة. وكان من كبار تلامذة أبي الصلاح، تولى خزانة الكتب بحلب، وقد أحرقت بعد صلبه في حدود سنة ٤٦٠ للهجرة، وكان فيها عشرة آلاف مجلد من وقف سيف الدولة الحمداني. وكان صلبه بسبب تأليفه كتابًا في كشف عوار الإسماعيلية وتزييف معتقداتهم، فأمر صاحب مصر، بصلبه فصلب.

مؤلفاته:

أما مؤلفات شيخنا أبي الصلاح الحلبي فله مصنفات في الأصول والفروع مشهورة بين العلماء ونحن نذكر بعضها:

١- البداية في الفقه.

٢- البرهان على ثبوت الإيمان في الكلام.

٣- تقريب المعارف في الكلام.

٤- التلخيص في الفروع أي: الفروع الفقهية.

٥- الكافي في أصول الدين وفروعه. لقد حاز هذا الكتاب اهتمام العلماء والدارسين، ونال استحسان وإعجاب كل من اطلع عليه.

٦- تدبير الصحة في الطب. ذكره الذهبي في تاريخه وقال: صنفه لصاحب حلب نصر بن صالح[٢٢].

٧- التهذيب، ذكره الذهبي في تاريخه، والأمين في أعيان الشيعة[٢٣].

٨- الشافية أو المسألة الشافية ذكره الحلبي نفسه في الكافي، والتستري في المقابيس، والأمين في الأعيان، والخياباني في ريحانة الأدب[٢٤].

٩- شبه الملاحدة، ذكره الذهبي في تاريخه، وذكره في أعيان الشيعة بهذا العنوان: دفع شبه الملاحدة، وكذا أيضًا في الريحانة. وله مؤلفات أخرى لا يسع المقام لذكرها.

ومن الجدير بالذكر أن كثيرًا من علمائنا نُسبوا إلى حلب، إما لولادتهم فيها وسكنهم أو لأمور أخرى، منهم:

أبو شعبة الحلبي، علي بن أبي شعبة الحلبي، عبيد الله بن علي بن أبي شعبة الحلبي، وغيرهم من آل أبي شعبة الذين قال عنهم النجاشي: وكانوا جميعهم ثقات مرجوعًا إلى ما يقولون. الشهيد أبو الحسن ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب الحلبي، كردي بن عكبر نزيل حلب. الحسن بن الحسين الحلبي. الشيخ الجليل الحسن بن حمزة الحلبي. محمد بن علي بن الحسن الحلبي. محمد بن علي بن المحسن الحلبي. وأخيرا: حمزة بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي. فاضل عالم ثقة جليل القدر.

وهذا يكشف بشكل واضح انتشار علمائنا في الأقطار وفي جميع العصور وكذلك يبدو من وجود العلماء وجود متعلمين وتلاميذ وحلقات درس وهكذا.

وفاته[٢٥]:

في سنة أربعمائة وستة وأربعين هجرية، بعد أن سافر لأداء فريضة الحج وبعد أن أكمل المناسك وعاد إلى بلده وفي طريقه للعودة توفي شيخنا رحمه الله تعالى عن عمر ناهز الرابعة والسبعين ففجعت الشيعة بموته، وكان ذلك في المحرم الحرام من سنة أربعمائة وسبعة وأربعين حتى نصبت مأتمين مأتماً للحسين عليه السلام ومأتماً لشيخها وفقيدها أبي الصلاح الحلبي (رحمة الله عليه).

---

١) ينظر: روضات الجنات/الخونساري/ج٢ص١١٥.
٢) معجم البلدان/ياقوت الحموي/ج٢ص٢٧٣.
٣) غنية النزوع/ابن زهرة الحلبي/ص٧.
٤) أعيان الشيعة/محسن الأمين/ج١ص٢٠١.
٥) رجال الطوسي/الشيخ الطوسي/ص٤١٧.
٦) خلاصة الأقوال/العلامة الحلي/ ص٤٨.
٧) الجامع للشرايع/يحيى بن سعيد الحلي/ص٥.
٨) دراسات في ولاية الفقيه/ج٢ص٤١٤.
٩) رجال ابن داود: ص ٧٥ ط المحدث.
١٠) السرائر/ابن ادريس الحلي/ص٧ ٢٦، ٣٣.
١١) قاله في إجازته للشيخ شمس الدين أبي جعفر محمد بن تاج الدين عبد علي كما في البحار ١٠٧ /١٩٨.
١٢) نقله عنه في الروضات ٢ / ١١٣. وأعيان الشيعة ٣ / ٦٣٥.
١٣) المعتبر في شرح المختصر٢/١١٦.
١٤) قاله في إجازته لوالد الشيخ البهائي الشيخ حسين بن عبد الصمد كما في البحار ١٠٨ / ١٥٨، ونقل العبارة بنصها والد الشيخ المجلسي في إجازته لمحمد تقي اليزدي كما في البحار ١١٠ /٧٠.
١٥) الكنى والألقاب ١ / ٩٩، سفينة البحار ١ / ٢٩٥.
١٦) الفوائد الرضوية:٥٧.
١٧) روضات الجنات /١١١/٢.
١٨) ينظر: مقدمة الكافي في الفقه/ الشيخ رضا الأستادي/ص١٣.
١٩) مقدمة الكافي في الفقه/الشيخ رضا الأستادي/ ص٨.
٢٠) م.ن/ص١٥.
٢١) ينظر: مقدمة الكافي في الفقه/ الشيخ رضا الأستادي/ص١٦.
٢٢) أعلام النبلاء ٤ /٧٧، نقلًا عن تاريخ الإسلام للذهبي أو مختصره للشيخ أحمد ابن الملا.
٢٣) أعيان الشيعة:١٤/١٩٤.
٢٤) ريحانة الأدب: ٧ /١٦١.
٢٥) ينظر: مقدمة الكافي في الفقه/الشيخ رضا الأستادي/ص٤.

السلطان جلال الدين محمد أكبر أعظم سلاطين آسيا من الشيعة

محمد علي جعفر
كاتب وباحث إسلامي

ينابيع

أكبر خان أبو الفتح جلال الدين محمد ملك فرغانة والهند، ابن همايون بن بابُر ظهير الدين محمد بن عمر الشيخ ملك فرغانة، ابن مير ميران شاه، ثالث أولاد تيمورلنك الكوركاني الشهير[1].

مولده:

ولد أكبر خان في السند ١٥ تشرين الأول أكتوبر سنة ١٥٤٢م (بإحدى قلاع السند في أثناء فرار والده (هُمايون) من مغتصب عرشه شيرشاه آل سور الأفغاني. ترك هُمايون ابنه، وهو في عامه الأول مع زوجته في قندهار وتابع فراره إلى إيران. ولم يجتمع بابنه إلّا بعد ثلاثة عشر عامًا في كابل، وهو عائد لاسترجاع ملكه)[2].

جده: ظاهر الدين بابُر

بعد وفاة والده في ٥ شهر رمضان سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٤م انتقل إليه ملك فرغانة وعمره ١٢ سنة وتوفي سنة ١٥٣٠م وفي سنة ١٤٩٧م ملك ما وراء النهر.

ويُعْتَبَر ظهير الدين بابُر من أعظم سلاطين دولة المغول في الهند، فمنذ وَلِي العرش في العام ٨٩٩هـ، وحتى عام ٩٣٣هـ لم يَقْضِ شهر رمضان عامين متتاليين بمكان واحد [3]؛ لكثرة أسفاره وفتوحاته التي اخْتَتَمَها في نهاية أمره بدخوله العاصمة الإسلامية دِهْلَى (دلهي) في عام ٩٣٢هـ، بعد جهاد حافل طويل.

مبنى قبر السلطانَ جلال الدين محمد أكبر

وفي يوم الجمعة ٨ رجب سنة ٩٣٢هـ... نودي ببابُر ملك ملوك الهند في جامع دهلي الأعظم، إلّا أن بعض زعماء الهنود حاربوه... وبقي يحارب في الهند خمسة أعوام حتى دوخها وأسس فيها السلطنة المغولية التي استمرت قرنين، وكان لها تاريخ كبير، وأبقى بابُر ذِكرًا خالدًا، وكان شجاعًا مقدامًا جامعًا بين شدة البأس ورقة الأدب.. وكان شاعرًا ويحفظ شعر عمر الخيام وحافظ الشيرازي[٤].

وحينما بدأت الأمور تستقرُّ لبابُر بعدما هزم التجمُّعَ الهندوسي، بدأ يتَّجه للإصلاحات الداخلية، فمهَّد الطريق للمسافرين، وأكثر مِن حَفْر التُّرَعِ، والأنهار، والقنوات، وغرس الأشجار، وقد مهَّد الهند ووطَّأها في فترة وجيزة لم تتعدَّ خمس سنوات حتى عام ٩٣٧هـ، وهو العام الذي تُوُفِّيَ فيه، وقد أوصى لابنه (هُمايون بن بابُر) مِن بَعْدِه[٥].

أبوه: هُمايون

ولما مات بابُر قام بعده بملك الهند ولده هُمايون... وجرت حروب بينه وبين شير شاه الذي كان استولى على عدة ولايات من الهند.. ففرّ من الهند.. والتجأ إلى شاه إيران، فسيّر معه الشاه جيشًا فتح به قندهار سنة ١٥٤٥م وكابل سنة ١٥٥٠م.. ثم بلاد الهند ما بين دهلي ولاهور، فانتصر همايون مسترجعًا ملكه، ولما وُفق

إلى ذلك عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م، جعل ابنه أكبر خان حاكمًا على البنجاب. ولم يلبث أن مات هُمايون فدفن بالقبة التي كان بناها لنفسه في دهلي والتي تعد من أعاجيب الدنيا[٦].

أكبر خان

لما مات هُمايون قام مقامه في السلطنة ولده (أكبر خان أبو الفتح جمال الدين محمد)، وهو لمّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ولكنه كان قد نبغ قبل بلوغ أشده، وكان تتويجه في البنجاب سنة ١٦٥٦م ووفقه الله بوزير مجرب شيعي اسمه بيرم خان وزير أبيه. ثم لما بلغ أشده واستوى، أخذ زمام الأمور بيده، واستقل بالملك.

أسماه والده (محمدًا) تبركًا بهذا الاسم، لكن الهند أطلقت عليه (أكبر) - ومعناها: البالغ في عظمته حدًا بعيدًا - ولم يدَّخروا من وسعهم شيئًا لتنشئته رجلًا عظيمًا، دُرِّبَ أكبر كقائد عسكري منذ طفولته، وعندما بلغ العاشرة من عمره منح القيادة العسكرية الأولى في حياته. وعلى الرغم من عدم تمتعه بقامة طويلة، إلّا أنه كان قويًا وسليم الجسم. وكان يبدو مثيرًا للإعجاب في ثيابه الفخمة[٧].

أخذ يَعُدّ نفسه لتولي المُلك بالرياضة الخطرة التي ما فتئ يرتاضها، فأصبح فارسًا يتقن ركوب الخيل إلى حدّ الكمال، وكان يلعب بالكرة والصولجان لعب الملوك، ومهر في فن سياسة الفيلة مهما بلغت من حدة الافتراس، ولم يتردد قط في ارتياد الغابة لصيد الأُسْد والنمور، وفي تحمل المشاق مهما بلغ عناؤها، وفي مواجهة المخاطر كلها بشخصه.

كان من أعاظم السلاطين في حزمه وسداد رأيه وقوة إرادته ووفور محبته للرعية وحسن سياسته وهو الذي دوخ بلاد الهند واستولى على ممالكها وأنشأ فيها دولة عظيمة[٨]. ومازال العديد من بنايات أكبر موجودة حتى اليوم، وتشمل القلعة الحمراء في أكرا ومدينة فاتح بور سيكري التي يحيط بها سور طوله عشرة كيلو مترات.

حسن معاملته للهنود

وكان الفاتحون المسلمون طالما هزموا ملوك الهند وفرضوا عليهم الجزية لكنهم لم يقدروا على ملاشاتهم ولا على كسب قلوبهم. ففكر (أكبر) في اتقاء خطرهم باستطلاح قلوبهم ونيل مودتهم وحمل من يعاند منهم على السيف.

عامل (أكبر) الهنود برفق عظيم ورفع عنهم ضروب الإهانات... لأنه أدرك أن خير ما يخدم به ملك الإسلام هو العدل، والله تعالى يقول: (**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا**) (المائدة: ٨)، ويقول أيضًا: (**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**) (النساء: ٥٨)، والعدل عنده يشمل جميع الرعية مسلمين وغيرهم.

ويقول مؤرخو الهند من الإفرنجة: إن سلطان دهلي (أكبر) عرف كيف يستولي على راجاوات الهند (الأمراء) ويستأسر قلوبهم، لأنه كان شهمًا وفيًا عالي الجناب تام المروءة حفيظًا للعهود، ملّاكًا للأفئدة، بشرف خصاله ونُبل فعاله.. فلما شاهدوا من السلطان أكبر ما شاهدوه من المكارم والمعالي محضوه خالص الودّ، وبايعوه من صميم القلب، وبذلوا من دونه أرواحهم، ووقفوا على مناصحته غدوّهم ورواحهم، فاستخلصهم هو لنفسه، وعول عليهم في

عملة نقدية فضية في عهد أكبر ذكرت فيها الشهادة

مهماته، وانتدب منهم للمناصب العليَّة، وعمّر بهم وبأبنائهم الأبواب السلطانية، ورجَّحهم على رهطه المغول، وجعلهم رداء له في المواقف.

سياسته الاجتماعية

ولأجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول اجتماعيًّا، أشار (أكبر) بتزويج بعضهم من بعض، وبدأ في ذلك بنفسه فعقد لنفسه.. ولولده جهانكير.. وزوج كثيرين من أمراء المغول أميرات من الأسر المالكة، ووشج علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية فتوطدت دولته وأمن شر العواقب.

حسن إدارته للسلطنة

ملأ الهند مآثر ومفاخر، وأدار السلطنة إدارة قل من سُدِّدَ لمثلها في الأوائل والأواخر، لأنه إلى زمانه كانت سلطنة الهند غير مبنية على قواعد ثابتة، ولا سائرة بأنظمة مقررة، بل كان السيف وحده حكمًا، وكانت الثورات متصلة، وأهواء الأشخاص هي الغالبة، فسيّر (أكبر) دولته هذه على أصول إدارة جديدة، غاية في الضبط والدقة، ورفع استبداد الأمراء وأزال الفوضى من البلاد، وحاسب أولئك الأمراء والملوك الذين كانوا يستبدون بالرعايا، فأرضاهم وارتاح الرعايا من ضررهم[٩]

بذل كل جهوده لمحاربة الفساد في الدولة، واصطنع الاقتصاد الدقيق في ضبط نفقات حاشيته وأهل أسرته، فحدد أسعار الطعام وسائر الأشياء التي كانت تشترى لهم، كما حدد الأجور التي تدفع لمن تستخدمهم الدولة في شؤونها؛ ولما مات، ترك في خزينة الدولة أموالاً طائلة، وكانت إمبراطوريته أقوى دولة على وجه الأرض طرًا، وشكل الدولة على النسق الحالي المتبع بهذا الوقت.

جهله القراءة والكتابة

لم يتح لـ (أكبر) في طفولته تعلم القراءة والكتابة نظرًا لظروفه التي ذكرناها آنفًا، ولما بلغ سن الرشد ثم شب واكتهل أهمل عمدًا تعلم الكتابة، إذ ليس يمكن تعليل ذلك بصورة أخرى، ولعل أكبر آثر التعلم بالمشافهة والكلمة الحية[١٠]. ورغم أنه كان أميًا إلّا أنه جمع آلافًا من المخطوطات، التي تتميز بالخط الجميل والرسومات. أحاط نفسه بالكُتّاب والعلماء والرسامين والمترجمين. ورغم أنه لم يهجر معتقداته الإسلامية، إلّا أنه كان يستمتع بالمناظرات

الدينية.

أدى شغف أكبر بالمسائل الدينية والفلسفية إلى نشاط الحركة الثقافية. ويشير معاصروه إلى كثرة عدد العلماء الذين حفل بهم بلاطه، حيث المكتبة التي ضمت ٢٤٠٠٠ مخطوط في الآداب والعلوم. وقد امتزجت في هذه الحركة العناصر الفارسية بالهندية. وترجمت إلى الفارسية الشائعة في الهند ـ وهي لغة الثقافة ـ مؤلفات من الفارسية والعربية والسنسكريتية[١١]، وعاش في عصر (أكبر) كبار العلماء والشعراء، أمثال فتح الله الشيرازي وأبو الفيض المبارك اليماني[١٢].

رفقه بالرعية

صدرت الأوامر إلى جباة الخراج بأن يصبروا على الفلاحين في جباية الأموال الأميرية، بل يقووهم من بيت المال في سنيّ القحط، كذلك توسل (أكبر) بوسائل ناجعة في قتل المجاعات التي تكثر في الهند في الأعوام التي يحتبس فيها الغيث، وكان يعاقب الأمراء الذين يظلمون المزارعين القائمين بخدمة أراضيهم، ومع مراعاته للبراهمة عارضهم في إحراق النساء اللاتي مات بعولتهن، وفي عادة إبقاء النسوة اللاتي يموت أزواجهن، وهن في سن العاشرة أرامل طول الحياة لا يحق لهن أن يتزوجن[١٣].

لغات الهند ولغة أوردو

وكانت اللغات المعروفة في الهند عدا لغات الهنود الأصليين ثلاثًا: العربية لغة الدين الإسلامي، والتركية لغة الأسرة التيمورية، والفارسية لغة البلاط والدولة، فوضع أكبر لغة أوردو التي تشتمل على كثير من العربي والفارسي والتركي مع الهندي، فسهل التفاهم بين الشعوب الهندية، واتسعت هذه اللغة تدريجيًا حتى أنه ليتكلم بها اليوم مائة مليون نسمة[١٤].

فلسفته وإنسانيته:

قالوا ـ أي الإفرنج ـ: إن (أكبر) فيلسوفًا كان أعظم منه سلطانًا، مع أن (أكبر) كان من أكبر سلاطين العالم وأحقهم بمكانة عليًا في التاريخ. وقال الكونت بوير مؤلف تاريخ أكبر: إن أكبر لم يُخلق أكبر منه في الشعور الحقيقي بالإنسانية.

تشيعه

يقول صاحب أعيان الشيعة:

ذكر مؤرخو الفرنجة تحوله عن مذهب السنة إلى مذهب الشيعة، وجعله اللغة الفارسية لغة البلاط .... وذكروا أنه قرب إليه (فتح الله الشيرازي) من أكابر علماء الشيعة، جاء من بلاد فارس، وأوطن في بيجابور، فاستدعاه (أكبر) إليه وصار (فتح الله الشيرازي) مستشاره الشرعي، وكذلك حظي عنده العالم الشيعي المسمى المبارك اليماني الهندي وولداه...أبو الفيض كان مشهورًا بحسن النظم والنثر، والثاني أبو الفضل، الذي وصفوه بعلّامة الزمان الحكيم. وآخرون من علماء وأمراء العراق وشيراز قد جاءوا بكثرة إلى بلاد أكبر شاه.

وكيف كان فلا ينبغي التوقف في تشيع أكبر شاه لأن جده تيمور الكوركاني كان شيعيًا بلا ريب، والسلسلة التيمورية الظاهر أنها كلها شيعة[١٥].

ومما يؤيد تشيعهم هو لجوء هُمايون والد (أكبر) إلى إيران حينما أطيح بملكه، وقد أحسن الشاه طهماسب الصفوي

استقباله في إيران ووفر له أسباب الراحة، وقد استطاع همايون بعد قضاء بعض الوقت في إيران أن يعيد الكرة على قندهار ويستولي على كابل والأقاليم الغربية للهند بمساعدة الجيش الإيراني، وكان معهم محمد ميرزا ابن الشاه طهماسب، وقد طلب هُمايون المساعدة العسكرية من طهماسب مرة أخرى حتى استرد ملكه ودانت له الهند مرة أخرى[١٦].

إلّا أن تميز (أكبر) عن أسلافه التيموريين أنه قرّب أعلام الشيعة وعلماءهم وجعل لهم مكانة عليّة في مملكته كمستشارين له في حُكمه، ـ وهذا مالم يفعله أسلافه بهذا الكم ـ فكانت كل قراراته تنسب إلى مستشاريه الشيعة، وهذا مما يغيظ أعداءه ومناوئيه، ويعتبرونها خروجًا عن الملة والدين ـ كما سيمر ـ .

ولم يفتأ هؤلاء المناوئين بحياكة المؤامرات والدسائس من جهة، ونشر الأكاذيب وتشويه تأريخه من جهة أخرى[١٧].

رغبته في الاطلاع على جميع الملل والمذاهب

وكان نتيجة حبه للمعرفة والاطلاع على مختلف الأفكار والعقائد، أن أسس قصرًا في (فتح بور سيكري) – عاصمته الجديدة ـ، وسماه (عبادات خانه) – أي بيت العبادة – ودعا إليه العلماء من كل الطوائف من السنة، والشيعة، والبراهمة، واليهود، والنصارى، والمجوس، وجعل يناقشهم في مسائل الدين[١٨]، وكان الشيعة في مقدمة من يشاركون في المباحثات الدينية في (عبادت خانه)[١٩].

زعم من زعم تهافته على كل دين... عن مؤرخي الإفرنجة: يقال إن (أكبر) تهافت

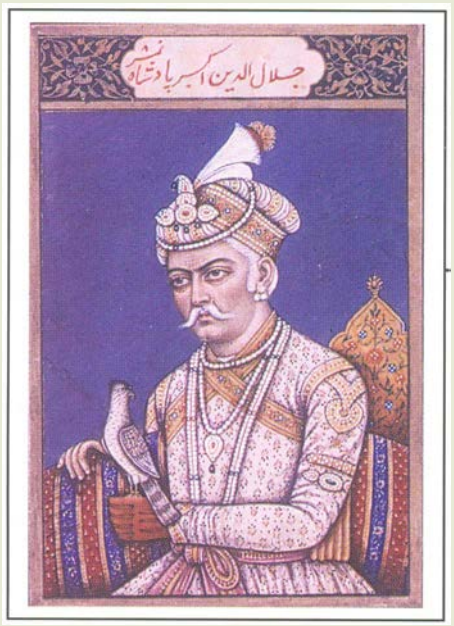

على كل دين، وأخذه بكل عقيدة، ونزوعه إلى كل فلسفة..

وقد ناقش السيد محسن الأمين في كتابه (أعيان الشيعة) كل الافتراءات المنسوبة إلى (أكبر)، وهذا بعض منها:

إن صح تهافته على معرفة الأديان، فذلك لأنه يريد زيادة التوثق من معرفة الصحيح منها، ولأنه يعتقد أن الأديان السماوية كلها حق، إما أنه يعمل بجميع الشرائع والأديان ويعتقدها حقًا مع أن بعضها باطل من أصله وبعضها منسوخ ـ كما يشنع عليه مبغضوه ـ فلا يمكننا التصديق به، لاسيما مع ما سبق من أنه كان يدين بالإسلام، إما إنه كان يريد التأليف بين المذاهب فليس بممتنع.

ولعل مثل هذه الإشاعات كانت تصدر عن أعدائه في المذهب من المسلمين، لاسيما إن صح ما قيل من شدة وطأته عليهم[٢٠].

حاله مع النصرانية

عن مؤرخي الإفرنجة: إن (أكبر) لم يغفل عن النصرانية، ففي سنة ١٥٨٠م أرسل إلى رهبان البرتغال الذين كانوا في غوا يستقدم منهم من يفقه في عقيدتهم، فلبوا دعوته وأرسلوا إليه بإنجيل أمر بنقله إلى الفارسية ليفهمه.

إن إرساله بطلب من يُفهمه عقيدة الرهبان، وأمره بترجمة الإنجيل إلى الفارسية، لم يكن إلّا لمحبة الاطلاع على الأديان والتوثق من معرفة صحيحها وفاسدها، وله غايات كثيرة منها الرد[٢١]. ولما ألحق الكَجرات بدولته، أضحى على اتصال مباشر بهم ـ النصارى ـ فمنعهم من توسيع نفوذهم، وأخذ عليهم المواثيق بعدم التعرض للحجاج في البحر، وسعى في أن يستفيد من خبرتهم العسكرية لقتال أعدائه.

وقفة تأمل:

شن المخالفون حملة شعواء ضد (أكبر) لم يهدأ أُوارها إلى اليوم، ونعتوه بأخس الصفات وأرداها، فقالوا عنه: الزنديق... الخبيث، بل قالوا إنه أسوأ وأخبث حكّام المسلمين...!! كيف ذلك؟ ترى ما الذي عمله؟

ولم يستطيعوا أن يخفوا حقدهم طويلًا، فالمدقق في كلامهم يعرف سبب هذه الهجمة الشرسة، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: (ما أضمر أحدكم شيئًا إلّا وأظهره الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه)[٢٢]، فلنقرأ ما كتبوه عنه: (... في بداية الأمر أظهر جلال الدين أكبر تمسكه بالإسلام وإقامة السنة والتودد الى العلماء وطلبة العلم، ولكن عندما مرت السنين بدأ جلال الدين أكبر يخضع تحت تأثير الروافض والنصارى والهندوس وحدث في أرض الهند أمور لم تحدث من قبل قط، فأتى بذلك أمر لم يأت به الأولون ولا الآخرون) !!!!!

ومن المؤاخذات التي سجلها الحاقدون على جلال الدين أكبر أنه أقام علاقات صداقة مع الهندوس والنصارى وتزوج منهم وأعلى مراتبهم.

وقالوا عنه أيضًا: وانتشرت البدع بطريقة كبيرة ـ في عصره، واندثرت السنة...وانتشر الرفض والتشيع تحت عباءة الصوفية التي زاد ضلالها أيام جلال الدين أكبر!! وأن أيامه وبالٌ على الإسلام في الهند. لأنه ـ بنظرهم ـ أفسد عقائد المسلمين في الهند، بل ضيع الإسلام في الهند!!! وواضح كلامهم هذا (انتشار البدع) كزيارة القبور وإقامة مآتم العزاء وغيرها.

نعم، إنه تأثر بالشيعة (الروافض) وقربهم وأخذ بآرائهم في الإدارة والحكم. هذا هو جرمه الذي ارتكبه في نظر أتباع ابن تيمية ومن في خطهم!

وهذا الأسلوب ليس غريبًا على الحاقدين وفي كل العصور في تسقيط العظماء والمصلحين، كالمختار الثقفي رغم ترحم أربعة من الأئمة المعصومين عليه.

وهكذا أصبح أكبر أقوى ملوك المغول إدارة وحُكْمًا[٢٣]. والذي كان حاكماً رحيماً حكيماً، وذا أفكار جديدة، ورأي صائب في معرفة الناس[٢٤]. أصبح في نظرهم زنديقًا وفاسداً ومفسداً لأنه شيعي.

وفاته:

كانت الدسائس والمؤامرات تحاك ضد (أكبر) (حتى لقد انتهى الأمر بهم مرة إلى شق عصا الطاعة علنًا، وإثارة ابنه الأمير جهانكير على أبيه بحيث أخذ يدبر له المكائدُ خفْية؛ ... لهذا حشَّد جهانكير جيشًا من ثلاثين ألف فارس، وقتل (أبا الفضل) مؤرخ القصر وأحب الأصدقاء إلى نفس الملك، ثم أعلن نفسه إمبراطورًا؛ لكن (أكبر) حمل الأمير الشاب على التسليم، وعفا عنه بعد يوم واحد، غير أن خيانة الابن لأبيه عملت على قتل صديقه، وحطمت قوته النفسية[٢٥]... فبدأ الأسى والأسف والحزن ينخر فيه،... أبعد كل الذي قام به من إصلاحات وحكم عادل وجعله دولتهم أعظم امبراطورية، تحاك ضده الدسائس من قبل المقربين إليه لا من قبل الأعداء !!! وفي خضم هذه المعاناة والصدمة النفسية ... مات أكبر ولم يكن إلى جانبه إلّا طائفة قليلة من أصدقائه المقربين...بمرض الديسنتاريا، أو مات مسمومًا بتدبير ابنه جهانكير على اختلاف الآراء في ذلك.

ولم يشيع جنازته عدد كبير من الناس، فكانت جنازة متواضعة، ولبس أبناؤه ورجال حاشيته ثياب الحداد بمناسبة موته، لكنهم خلعوها في مساء اليوم نفسه، فرحين بوراثتهم للمُلك من بعده، فكان موته موتًا مريرًا، مع أنه أعدل وأحكم حاكم شهدته آسيا في كل عصورها[٢٦].

---

١) أعيان الشيعة/السيد محسن الأمين، ج١٠ص٩٢.
٢) الموسوعة المعرفية الشاملة (أكبر).
٣) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية/أحمد محمود الساداتي:٤١/٢ بتصرف.
٤) أعيان الشيعة: ج١٠ص٩٢.
٥) تاريخ الإسلام في الهند/عبد المنعم النمر: ص١٧٧بتصرف.
٦) أعيان الشيعة: ج١٠ص٩٣.
٧) الموسوعة العربية/مظهر شهاب: (أكبر) جلال الدين محمد.
٨) أعيان الشيعة/ص٩٣: نقلًا عن كتاب حاضر العالم الإسلامي/للأمير شكيب أرسلان، نقل بتصرف.
٩) أعيان الشيعة: ج١٠ص٩٣: بتصرف.
١٠) م.ن.
١١) قصة الحضارة/ويل ديورنت/التراث الشرقي. كتاب الهند وجيرانها. ص.٧٨٨.
١٢) أعيان الشيعة: ج١٠ص٩٤.
١٣) م.ن.
١٤) م.ن.
١٥) أعيان الشيعة: ج١٠ص٩٤.
١٦) ظ: فرق الهند المنتسبة للإسلام في القرن العاشر الهجري وآثارها في العقيدة (دراسة ونقدا)/محمد كبير أحمد شودري/ص٤٠٠ /نقل بتصرف.
١٧) الاعيان: نقلًا عن كتاب حاضر العالم الإسلامي/ للأمير شكيب أرسلان/نقل بتصرف.
١٨) ظ: تاريخ الإسلام في الهند/عبد المنعم النمر: ص١٨٠/ نقل بتصرف.
١٩) ظ: فرق الهند المنتسبة للإسلام في القرن العاشر الهجري وآثارها في العقيدة "دراسة ونقدا"/محمد كبير أحمد شودري/ص٤٠١.
٢٠) أعيان الشيعة/ج١٠ص٩٥.
٢١) الأعيان: نقلًا عن كتاب حاضر العالم الإسلامي/ للأمير شكيب ارسلان.
٢٢) البحار، ج٦٥، ص٣١٦.
٢٣) ملحمة الإسلام في الهند/عدنان علي رضا النحوي: ص٦١.
٢٤) قصة الحضارة/ويل ديورنت/التراث الشرقي. كتاب الهند وجيرانها. ص. ٧٨٨.
٢٥) م.ن/ص٧٩٧.
٢٦) م.ن.

السُلَّم الحِجاجيّ في توقيعات الإمام المهدي (عج)

أ.د. عبد الإله عبد الوهاب العرداوي
جامعة الكوفة/ كلية التربية الأساسية

السُلَّم لغة واصطلاحًا:

السلم بالضم والتشديد في اللغة (الدرجة والمرقاة، قال الزجاج: سمي السُلَّم سُلَّمًا لأنه يُسلِّمكَ إلى حيث تريد)[١]، وزيد إليه (من الأمكنة العالية فتُرجى بها السلامة)[٢]: وقيل هو السبب إلى الشيء، سمّي بهذا الاسم لأنه يؤدي إلى غيره، كما يؤدي السُلَّم الذي يُرتقى عليه ويُصعد عليه[٣]. ومن خلال ما تقدم لا تبعد الدلالة الاصطلاحية للسُلَّم عن معاني الارتفاع والارتقاء في القوة والمكانة بسياق متدرج، والتي تبرز بصورة واضحة في دلالة السُلَّم الحجاجي من حيث قوة الحجج كلما ارتفعنا في السُلَّم وباتجاه عمودي.

فن التوقيعات الأدبية:

أ- التوقيع لغة:

التوقيع في اللغة مشتق من التوقيع الذي هو بمعنى التأثير، يقال: وقع الدبر ظهر البعير إذا أثر فيه، وكذلك الموقع (كاتب التوقيع) يؤثر في الخطاب، أو الكتاب الذي كتب فيه حسًا أو معنى[٤]، وقيل إن التوقيع مشتق من الوقوع، لأنه سبب في وقوع الأمر الذي تضمنه، أو لأنه إيقاع الشيء المكتوب في الخطاب أو الطلب فتوقيع كذا، معنى إيقاعه[٥] قال الخليل: التوقيع في الكتاب إلحاق فيه بعد الفراغ منه أو اشتقاقه من قولهم وقعت الحديقة بالميقعة، وهي المطرقة إذا ضربتها، وحمار موقع الظهر: إذا أصابته في ظهره دبرة، والوقيعة، نقرة في صخرة يجتمع فيها الماء، وجمعها: وقائع فكأنه سمي توقيعًا، لأنه تأشير في الكتاب أو لأنه سبب وقوع الأمر وإنفاذه، من أوقعت الأمر فوقع[٦]. وقال ابن الأنباري: (توقيع الكتاب في الكتاب المكتوب أن يجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة، ويحذف الفضول، وهو مأخوذ من توقيع الدبر ظهر البعير، فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده ويوجبه)[٧].

ب- التوقيع اصطلاحًا:

لقد اكتسبت التوقيعات في الإسلام معنى اصطلاحيًا يرتبط بالمعنى اللغوي الذي ذكرناه سابقًا فأصبحت تستعمل لما يوقعه الكاتب على القضايا أو الطلبات المرفوعة إلى الخليفة أو السلطان أو الأمير فكان الكاتب يجلس بين يدي الخليفة في مجالس حكمه فإذا عرضت قضيته على السلطان أمر الكاتب أن يوقع بما يجب إجراؤه، وقد يكون الكاتب أحيانًا السلطان نفسه[٨]. يقول البطليوسي في تعريف التوقيع اصطلاحًا: (وأما التوقيع فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك أو من له أمر ونهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك ينفذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب، لترد على هذا ظلامته أو لينظر في خبر ذلك أو نحو ذلك)[٩]، ويقول ابن خلدون: (ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة، ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه)[١٠].

وتطور مفهوم التوقيعات في العصر العباسي واكتسب دلاله أدبية فأصبحت تطلق على تلك الأقوال البليغة الموجزة المعبرة التي يكتبها المسؤول في الدولة أو يأمر بكتابتها على ما يرفع إليه من قضايا أو شكايات متضمنه ما ينبغي اتخاذه من إجراء نحو كل قضية أو مشكلة، وهي بهذا المفهوم أشبه ما تكون بتوجيه المعاملات الرسمية في الوقت الحاضر[١١].

التوقيعات عند أهل البيت عليهم السلام:

برزت التوقيعات عند أهل البيت عليهم السلام لاسيما ما ورد من توقيعات للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ فمن توقيعاته ما وقّع به إلى طلحة بن عبيد الله (في بيته يُؤْتى الحكم)[١٢].

ووقع في كتاب سلمان الفارسي (رض) وكان سأله كيف يُحاسب الناسُ يوم القيامة: (يحاسبون كما يرزقون)[١٣]، ووقع في كتاب أتاه من الأشتر النخعي فيه بعض ما يكره: (مَنْ لك بأخيك كله)[١٤]، ووقع في كتاب لصعصعةَ بن صُوحانَ يسألُه في شيءٍ: (قيمة كل امرئ ما يحسن)[١٥] وكتب إليه الحُضَيْن بن المُنذر في صفين يذكر أن السيف قد أكثر في ربيعة، وبخاصة في أسرى منهم، فوقع إليه: (بقيّةُ السيفِ أنمى عددًا)[١٦]. إن كلمة التوقيع ذُكرت لأول مرة في روايات الإمام الكاظم عليه السلام حيث كتبها عليه السلام تحت أحد الكتب على نحو التذكير. وبهذا الشكل وهذا التركيب جاءت بعض الروايات عن الإمام الرضا عليه السلام[١٧]، ولكن هذا الاصطلاح أصبح مختصًا فيما بعد بالتوقيعات الصادرة عن الإمام المهدي (عج) حيث أصبح يطلق على ما جاء

مكتوبًا منه (عج) إلى علماء الشيعة أو لم يكن مكتوبًا، بل عن مشافهة[١٨].

توقيعات الإمام المهدي (عج)

نقلت كتب متفرقة التوقيعات الصادرة عن الإمام المهدي (عج) في سنة (٢٦٠ و٢٦٣ و٢٦٨ و٢٧١ و٢٧٣ هجرية) وكان هذا في زمان سفارة عثمان بن سعيد العمري. أما في زمان سفارة محمد بن عثمان بن سعيد العمري وفي سنة ٢٨١هـ صدر توقيع عن الإمام المهدي (عج) مشتمل على الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته عليهم السلام، وفي سنة ٢٩٠ هـ صدر توقيع من الإمام في توثيق محمد بن جعفر الأسدي وكيل الإمام المهدي (عج)، وقد صدر التوقيع إلى صالح بن أبي صالح.

وفي سنة ٢٩٨هـ صدر توقيع منه عن طريق الحسين بن روح وكان هذا التوقيع موجه إلى علي بن أحمد العقيقي من أجل مساعدة الحسين بن روح من الضيق الذي كان فيه حيث كان عاملاً في ذلك الوقت عند محمد بن عثمان بن سعيد العمري وفي نهاية الغيبة الصغرى صدر توقيع من الإمام المهدي (عج) إلى علي بن محمد السمري آخر نواب الإمام المهدي (عج) أخبره فيه أنه سيموت بعد ستة أيام وأن لا يوصي لأحد من بعده كوكيل خاص للإمام (عج) فقد بدأت الغيبة الكبرى وكان هذا سنة ٣٢٨ أو سنة ٣٢٩هـ. وفي عصر الغيبة الكبرى صدر توقيعان من الإمام المهدي (عج) إلى الشيخ المفيد وكان هذا في سنة ٤١٠ و٤١٢ هـ. وهناك الكثير من التوقيعات لكنها غير معلومة التاريخ، ومن المرجح ومن خلال النظر إلى القرائن أنها كانت في أوائل الغيبة الصغرى أيام وكالة عثمان بن سعيد العمري[١٩].

ومما تقدم يتضح أن التوقيع عنوان للخطاب الصادر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم ولا سيما من الإمام المهدي (عج) حيث كان يكتبه بخط يده لشيعته، والدليل على أنه صادر عن الإمام (عج) وجود إمضائه، والتوقيعات التي كانت تصدر عنه (عج) ترسل إلى نوابه المعتمدين في الغيبة الصغرى، وفي الغالب فإن هذه التوقيعات تحمل طابع الإعجاز وخرق العادة، وهي واحدة من دلائل إمامته (عج) والمراد من التوقيعات الصادرة عن الإمام المهدي (عج) لشيعته، بيان أمر من الأمور، أو جوابًا لسؤال يرفع في رقعة إلى الإمام المهدي (عج) عن طريق سفرائه، أو أنّه (عج) يرسل التوقيع دون سؤال من أحد. وأكثر التوقيعات صدرت في الغيبة الصغرى، وفي الأعم الأغلب تكون موجهة إلى سفرائه (عج) أو أحد وكلائه. وهناك بعض التوقيعات صدرت عن الإمام في الغيبة الكبرى كما في التوقيعين الصادرين إلى الشيخ المفيد.

الإطار التطبيقي:

تتنسق مجموعة من الحروف ببعد حجاجي مهم من خلال ربطها بين الحجج والنتائج والتنسيق بينها من أجل التعليل والتفسير والتبرير، ومن هذه الروابط أحرف العطف (الواو، الفاء، ثم) إذ أنها تقوم بدور حجاجي كبير، فالملاحظ أنها تقوم بالربط بين قضيتين (حجتين) لنتيجة واحدة ووصفها سُلّمًا حِجاجياً يخضع هذه الحجج إلى تراتبية معينة بحسب قوتها في دعم النتيجة النهائية، فإنها تسهم أيضًا في بداعة المعنى المقصود ولاسيما

إذا استعمل كل حرف واستغلت وظيفته في الموضوع المناسب، فذلك يزيد من الاثبات على المعنى من جهة، ويلقي على الخطاب نوعًا من التنظيم والانسجام مرة أخرى[٢٠]، وفي هذا المورد سنحاول أن نبين عمل هذه الروابط في توقيعات الإمام المهدي(عج)، وبيان مستوى دعمها لعمل المحاججة.

أـ الرابط الحجاجي (ثم):

هي من حروف العطف التي تفيد التراخي والمهلة بين قضيتين متباعدتين، فضلًا عن إفادتها الترتيب بين الحجج، ومثالها قوله عليه السلام: (فمنهم من جعل النار عليه بردًا وسلامًا واتخذه خليلًا، ومنهم من كلمه تكليمًا وجعل عصاه ثعبانًا مبينًا، ومنهم من أحيى الموتى بإذن الله وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، ومنهم من علّمه منطق الطير وأوتي من كل شيء ثم بعث محمد صلّى الله عليه وآله رحمة للعالمين وتمم به نعمته)[٢١] فالحجج التي أقامها الإمام المهدي (عج) متتالية ومرتبة تتسق وتنسجم مع ما ينبغي أن يكون عليه ترتيب ومعاجزهم، وقد أفادت (ثم) في إقامة هذه التراتبية في عرض الحجج وبحسب سياقاتها، وحقيقة (ثم) هنا دالة على التراخي والمهلة للربط بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذه المهلة مرتبطة بالزمن الحقيقي الفعلي مقترنًا بزمن نفسي مفعم بالأحاسيس التي ترتكز على الوعد والبشارة بالرحمة والنعمة.

ومنه قوله (عج): (وختم به أنبياءه وأرسله إلى الناس كافة، وأظهر من صدقه ما ظهر، وبيّن آياته وعلاماته ما بين، ثم قبضه صلّى الله عليه وآله حميدًا فقيدًا سعيدًا)[٢٢]، فنلحظ هنا أن الرابط (ثم) قد توسط بين الأفعال للدلالة على التراخي وإعطاء المهلة، وكأن بين الأفعال المتناسقة تراخيًا زمنيًا مع إفادة الترتيب

في إلقاء هذه الحجج.

ب/ الرابط الحجاجي (الواو):

يشير هذا الرابط إلى وظيفة الجمع بين قضيتين (حجتين) ويستعمل حجاجيًا بوصفه رابطًا عاطفيًا على ترتيب الحجج ووصل بعضها ببعضها الآخر، بل يعمل على رصّ الحجج وتماسكها وتقويتها فضلًا عن التدرجية أو السلمية في ترتيب الحجج وعرضها[٢٣]، ومن الشواهد في نص توقيعات الإمام المهدي (عج)، قوله (عج): (أم بعلم، فما يعلم حقًا من باطل، ولا محكمًا من متشابه، ولا يعرف حد الصلاة ووقتها)[٢٤]، فالرابط الحجاجي (الواو) قام بالربط والوصل بين الحجج، وعمل أيضًا على ترتيبها بالشكل الذي يضمن تقوية النتيجة المطروحة ودعمها، وهي (أم بعلم) كما عمل على حصول الترادفية في النتيجة الواحدة وهذا الربط النسقي بين الحجج قد أضفى سلمية تدرجية باتجاه الحجة الأقوى بشكل عمودي.

(ن) أم بعلم

ق١ يعلم حقًا من باطل.

ق٢ ولا محكمًا من متشابه.

ق٣ ولا يعرف حد الصلاة ووقتها.

وهنا يتضح أن الحجة الأولى هي الحجة الأقوى مقارنة بالحجج التي سبقتها لخدمة النتيجة المعروضة لورودها في أعلى السلم الحجاجي.

ومن تمثلات (الواو) الحجاجية قوله (عج): (فلا ظهور إلّا بعد إذن الله تعالى، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جورًا)[٢٥].

ويمكن بيان السلم الحجاجي في الآتي:

(ن) فلا ظهور إلّا بعد إذن الله تعالى

ق١ وذلك بعد طول الأمد

ق٢ وقسوة القلوب

ق٣ وامتلاء الأرض جورًا

فالحجج المترادفة قد اتسقت واتحدت باتجاه دعم النتيجة المطروحة وتقويتها بقوة الرابط (الواو) الذي أفاد التعليل والتبرير لمضمون النتيجة (لتسابقوا إلى رحمة الله ولتتفاضل منازلكم في جنته) كما اشتغل الرابط على التراتبية وإدراج الحجج بشكل عمودي.

ومنه قوله (عج): (ثم بعث النبيين عليهم السلام مبشرين ومنذرين، يأمرونهم بطاعته، وينهونهم عن معصيته، ويعرفونهم ما جهلوه من أمر خالقهم ودينهم)[٢٦] فهنا متوالية حجاجية نسقية تدعم النتيجة وتبرزها بقوة الرابط (الواو) الذي دل على التعليل والتبرير لمضمون النتيجة (الحمد لله أفضل ما حمده حامد إلى أبد الآبد) كما عمل الرابط على التدرجية والسلمية باتجاه الحجة الأقوى وبشكل عمودي .

(ن) بعث النبيين عليهم السلام مبشرين ومنذرين

ق١ يأمرونهم بطاعته

ق٢ وينهونهم عن معصيته

ق٣ ويعرفونهم ما جهلوه من أمر خالقهم ودينهم

ج- الرابط الحجاجي (الفاء)

من حروف العطف التي تضطلع بمهمة حجاجية، إذ أنها تربط بين النتيجة

والحجة من أجل التعليل والتفسير فهي أداة ربط تفيد التعليل والاستنتاج في الخطاب الحجاجي التداولي ومن ثم فهي تجمع بين قضيتين متباعدتين في الدلالة على التقارب بين الأحداث، فضلًا عن الدلالة على الترتيب والاتصال، وأكثر ورودها كون ما بعدها أو المعطوف متسببًا عما قبله[٢٧]، ومن أمثلتها قوله (عج): (يا علي بن محمد السمري أعظم اللّه أجر إخوانك فيك، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام، فاجمع أمرك ولا توصِ إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتكَ، فقد وقعت الغيبة الكبرى)[٢٨]، فهنا نجد الرابط (الفاء) قد عمل على الترتيب والاتصال/التسارع ببلوغ الغيبة الكبرى.

---

١) لسان العرب :٢٩٩/١٢ مادة (حجج.
٢ تاج العروس ٣٥٠/١٦.
٣) ينظر: تاج العروس ٣٥٠/١٦، ولسان العرب: ٢٩٩/١٢ مادة (حجج)، ومجمع البحرين:٩٠/٦.
٤) ينظر لسان العرب ٤٠٦/٨ مادة (وقع) وتاج العروس ٥٢٥/١١، وزهر الأكم في الأمثال والحكم: ٢٢٠/٢، وتاريخ آداب اللغة العربية: ٢٥.
٥) ينظر تاج العروس: ٥٢٢/١١، وزهر الأكم: ٢ / ٢٢٠.
٦) الاقتضاب في شرح أدب الكاتب: ١٩٦/١.
٧) لسان العرب: ٤٠٦/٨ مادة وقع، وينظر تهذيب اللغة: ٣٥/٣-٣٦ مادة (وقع).
٨) ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٥.
٩) الاقتضاب في شرح أدب الكاتب: ١٩٥/١٠.
١٠) مقدمة ابن خلدون: ٦٨١.
١١) ينظر فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي: بحث منشور على الإنترنت على موقع مجلة الأديب العربي.
١٢) التوقيع في الأصل مثل ينظر: المثل وقصته: جمهرة الأمثال: ٣٦٨/١، ومجمع الأمثال: ١٩/٢.
١٣) العقد الفريد: ٤١/٤.
١٤) م.ن: ٤٢/٤.
١٥) م.ن: ٤٢/٤.
١٦) م.ن: ٤٢/٤.
١٧) الكافي: ٥/٣.
١٨) كتاب الغيبة: ٣-٩.
١٩) ينظر في مواضع متفرقة: الهداية الكبرى: ٣٦٧ وما بعدها، وكتاب الغيبة: ٣٥١-٣٨٤، وكمال الدين وتمام النعمة: ٤٨٣-٥٢٣، والاحتجاج: ٢٦٨/٢- ٣٢٧.
٢٠) ينظر: الحجاج في كتاب المثل السائر (رسالة ماجستير): ٩٣.
٢) الاحتجاج:٢٨٠/٢.
٢٢) م.ن: ٢٨٠/٢.
٢٣) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة – دراسة حجاجية: ١٢٣.
٢٤) الاحتجاج: ٢٨١/٢.
٢٥) الاحتجاج: ٢٩٧/٢.
٢٦) م.ن: ٢٨٠/٢.
٢٧) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: دراسة حجاجية: ١٢٤٠.
٢٨) الاحتجاج: ٢٩٧/٢.

واحة الأدب

(المجاز قنطرة الحقيقة)

حكاية رمزية

كمال السيد
كاتب وروائي

ينابيع كانت هناك مملكة في غابر الزمان أمرها عجيب، ذات يوم وصلها رجل غريب كان فقيرًا حافيًا يرتدي ثوبًا مزّقه الفقر عيناه زائغتان بسبب الجوع اتجه إلى السوق لعلّه يعثر على كسرة خبز أو يصادف إنسانًا يرحمه ويتصدّق عليه؛ فإذا به يصادف حرسًا وجنودًا مسلحين فانخلع لمنظرهم قلبه.

رآهم يتجهون إليه فأراد أن يهرب لكنهم أمسكوا به دون سؤال استغاث الرجل الغريب، تضرع إليهم وبكى ولكنهم حملوه كما تحمل الجنائز وأخذوه متجهين نحو تلال خضراء لاحت له في أطراف المدينة؛ مرّوا به خلال الحقول الخضراء والحدائق الغنّاء وعبروا السواقي والجداول إلى أن وصلوا إلى قصر منيف تحيطه الأسوار العالية وأبراج الحراسة الشاهقة.

ولمّا رأى الرجل أنه يستغيث فلا يغاث ويبكي فلا يلتفت إليه أحد؛ استسلم لمصيره، بل ونسي جوعه وعطشه.

اتجه الجنود نحو بناء من الرخام الأبيض وسلّموا الرجل الغريب إلى رجل عملاق ضخم الجثة ومعه رجل آخر عبوس الوجه أيضًا. كان البخار يتصاعد من حوض مبني من المرمر الصقيل، أُدخل الرجل إلى غرفة وخلعوا ثوبه الوحيد الممزق ليوضع في صندوق مركون في الزاوية.

أشار الرجل العملاق إلى بعض الخدم فتلقفوا الرجل الغريب ووضعوه في الحوض وباشروا عملهم في تنظيفه حتى أزالوا عن بدنه الأوساخ وجاء الحلاق والمزيّن فأزال عنه الشعر الزائد وقص له شعر رأسه حتى أصبح متألقًا ثم دهنوه بالعطور الفواحة والزيت، وأخذوه إلى غرفة مليئة بالحُلل الحريرية الناعمة المطرزة والمزركشة بالخيوط الذهبية والفضية، وقدّموا له حذاءً مرصعاً بالجواهر واتجهوا به إلى البلاط الملكي، فلاحَ له عرش ذهبي.

الرجل الغريب ما يزال مشدوهًا لا

يفهم ماذا يجري له، ظن نفسه في حلم، ففرك عينه وصفع خدّه لكي يستيقظ ولكن دون جدوى، شيء يجري على أرض الواقع!

وضعوا التاج على رأسه وقادوه إلى العرش ليجلس، ولمّا استقر به الجلوس، رأى الجميع ينحني له ويهتفون بصوت واحد.

ـ سمعًا وطاعة للسلطان!

ظل الرجل الغريب ساكتًا تدور عيناه في محجريهما؛ ينتظر نهاية لما يجري، فجأة زقزقت عصافير بطنه فتذكر جوعه كان يتمنى كسرة خبز يسدّ بها رمقه، تمتم بصوت مخنوق: كم أنا جائع !!

فإذا بالخدم وبأسرع ما يكون يمدّون الخوان ثم رأى آخرين يحملون الأطباق، فيها ما لذ وطاب من البط المشوي والخبز الطازج الطري وألوان الفاكهة وثمار الفصول الأربعة، ومن أنواع الحلوى، فامتلأ الخوان بأصناف الطعام من الحامض والحلو والمالح:

وانحنى له رجل توّج رأسه بعمامة تشع في مقدمتها ياقوته حمراء وقال:

ـ تفضل يا جلالة السلطان!

التفت الرجل الغريب حواليه ليرى من يخاطب؛ فإذا هو لا يرى شخصًا سواه!

تمتم بصوت منقطع بعد أن بلع ريقه:

ـ كل هذا الطعام لرجل واحد !!

ـ قال الرجل الذي انحنى له:

ـ وأنا أيضًا بصفتي كبير الوزراء سوف أجلس وأتحدث معكم في شؤون المملكة!

نزل الرجل الغريب مرتبكًا حذرًا وهو يتلفت ويتساءل في نفسه ماذا سيأكل؟ هل سيأكل من لحم البط المشوي أم إنه سيأكل عددًا من السياط؟!

قام كبير الوزراء برفع العمامة من رأس السلطان باحترام بالغ ليضعها فوق طبق فارغ يحمله أحد الخدم.

وجاء خادم يحمل إبريقًا وآخر طستًا، صب الذي يحمل الإبريق الماء على يدي (السلطان) الذي انهار أمام رائحة اللحم المشوي فمدّ يديه يمزّق اللحم تمزيقًا ويلتهمه بشراهة ثم عرّج على الحلوى فراح يبطش بها بطشًا ويقضم الفاكهة قضمًا !!!

قال كبير الوزراء:

ـ أكلت هنيئًا مريئًا يا مولاي السلطان؛ إن هذه المملكة مملكتك وأنا رهن إشارتك، تأمر وتنهى ومنا السمع والطاعة!!

امتلأت بطن الملك الجديد! بالطعام فتثاءب للحاق بجيش النيام ومشاهدة الأحلام.

قال كبير الوزراء:

ـ تفضل يا مولاي السلطان إلى غرفة النوم للاستراحة والاستحمام!

دخل الملك إلى حجرة واسعة يتوسطها سرير يكفي لأربعة أشخاص سمان، ألقى بنفسه فوق السرير الوثير ووضع رأسه فوق وسائد من الاستبرق والحرير، فشعر بأن جسمه يطفو على سطح بحيرة هادئة أو في قارب يتهادى وينساب!

وهكذا أمضى الملك الجديد يومه العجيب، في الصباح كان حافيًا عاريًا

جائعًا وأمسى شبعان ريّان يرتدي أفخر الثياب والحلل وقد ضربت دونه الستائر والكلل وبطنه مليئة بالطعام وكان نومه عميقًا زاخرًا بالأحلام، بدأ يصدق بأنه السلطان وإنه الملك وصاحب التاج والصولجان !!

ومرّ يوم آخر وآخر وفي اليوم الرابع أسند ظهره إلى العرش باسترخاء وراح ينظر إلى الأعيان والوزراء بنظرة فيها ازدراء واستعلاء! وتناهى إليه صوت الخيول ونباح الكلاب فقال لوزيره ما هذا أيها الوزير؟!

- قال كبير الوزراء:

- إنها رحلة صيد لمولانا السلطان ففي لعبة الصيد والصياد تخفيف من عناء حكم البلاد وتدبير شؤون العباد!

وهكذا ذهب الملك الجديد في رحلة للترفيه والصيد!

لم تمض سوى أسابيع حتى اغتر الملك تمامًا بسلطانه وتاجه وصولجانه وراح يكثر من تناول الطعام والذهاب إلى الحمام، وامتلأ قصره بالغلمان والجواري الحسان، والمطربين والإكثار من إقامة الحفلات والسهرات!!

وهكذا تمر الأيام والشهور حتى اكتمل عام بالتمام.

كان الملك في صباح ذلك اليوم جالسًا على عرشه ولكنه كان وحيدًا في البلاط، لا وزراء ولا أعيان، فهل البلاد في عطلة أم أن ذلك بسبب سهرة البارحة والحفلة ويا لها من حفلة فاضحة؟! واستغرق في الفكر... آه لقد مرّ عام بالتمام .. في ذلك الصباح قبل عام كنت قرب السوق جائعًا دون طعام وحافيًا دون نعل وحذاء ممزق الثياب، وها أنا اليوم في هذا الصباح شبعان وريّان أرتدي أفخر الثياب وأنام في الليل والنهار أعيش كما تعيش الملوك في عزٍّ وفي فخار!

وفيما كان الملك مستغرقًا في الخيال إذا بصيحات الجنود تكسر صمت المكان وإذا بهم يقتحمون البلاط ويتجهون إليه وينتزعونه من فوق العرش انتزاعًا، فصرخ بهم.

- أنا السلطان! اغربوا عن وجهي واخرجوا من المكان!!

ولكن الجنود الغلاظ الأجسام، اندفعوا نحوه وانتزعوه من عرشه واتجهوا به إلى ذلك الحمام الذي جاءوا به إليه قبل عام! فأدخلوه إلى ذات الغرفة وأخذوا التاج منه وخلعوا حلله وثيابه وجردوه من كل شيء، ثم فتحوا ذلك الصندوق وألبسوه ثوبه الممزق وسجنوه لحين حلول المساء.

ولما حلّ المساء وأظلمت السماء انفتح الباب بقوة وأخرج الرجل عنوة؛ واتجهوا به في الظلام وجميع أهل المدينة نيام.

وقاد الحرس والجنود الرجل الممزق الثياب حتى وصلوا إلى ساحل البحر فدفعوه إلى داخل القارب وجذفوا طوال الليل إلى السحر حتى وصلوا إلى جزيرة صغيرة فألقوه في الرمال وعادوا من حيث أتوا به.

فلما طلع الصباح وبزغ نور الشمس ولاح؛ وجد الرجل نفسه وحيدًا في جزيرة جرداء كالصحراء ورأى كثيرًا من الجماجم والعظام والأشلاء!

وأما الجنود فإنهم لما أصبح الصباح انطلقوا في شوارع المدينة للبحث عن رجل غريب آخر!

وفي نهاية المطاف وجدوا رجلًا غريبًا جالسًا على ضفة النهر وكان الرجل بالرغم من شدة الفقر يجيل النظر في وقار ويتأمل الأصداف والمحار والورود والأزهار، ثم ينظر إلى السماء والطيور سابحات في الفضاء.

فإذا بالجنود يحيطون به وينتزعونه انتزاعًا ثم يمضون به سراعًا!

متجهين إلى التلال الخضراء مخترقين المزارع والحدائق الغناء إلى أن وصلوا أسوار القصر، ثم أخذوا به إلى الحمام المبني من المرمر والرخام.

وجرى لهذا الرجل ما جرى لسابقه، غير أنه تأمل وفكّر واستغرب الأمر واستذكر، وأدرك أن في الأمر سرًا وأي سرّ؟!

فلما جلس على العرش ووضعوا التاج على الرأس استغرق في الفكر أكثر فأكثر؛ انحنوا له وخاطبوه: يا جلالة السلطان ويا ملك البلاد! نحن رهن إشارتك تأمر فنطيع وتنهى فنطيع!

ثم مدّوا الخوان وحلت الأطباق المليئة بالطعام والشراب من كل الألوان! وبكل ما لذّ وطاب، فأكل يسيرًا من الطعام والشراب، ونهض عن المائدة وتنحى وهو ما يزال مستغرقًا في الفكر يريد الكشف عن السرّ!

ومرّت أيام والرجل ما يزال يفكر مستغربًا، لما يجري مستنكرًا! ثم قرر أن يبحث عمّن يحل له هذا اللغز.

وفي ليلة من الليالي ارتدى الرجل ثوبًا بسيطًا وتسلل إلى خارج القصر لا يعلم به أحد وأخذ طريقه إلى المدينة ينظر في وجوه الناس فلعلّه يجد من يسأله ويستوضح منه حتى وقعت عيناه على شيخ وقور قد اشتعل رأسه شيبًا وحاز من التجارب نصيبًا.

فسلّم عليه وحيّاه وقال له:

- إني رجل غريب في هذه الديار وقد رأيت أمرًا حيرني؛ فأنا أفكر فيه منذ أيام.

قال الشيخ الوقور:

- وما الذي رأيت فحيرك ؟!

قال الرجل:

- رأيت قبل أيام جندًا هجموا على رجل فقير وأخذوه إلى قصر السلطان وألبسوه التاج وقلّدوه أمر البلاد، فكان في الصباح رجلًا فقيرًا وفي المساء ملكًا كبيرًا ؟!

أطرق الشيخ وقال بحذر:

- سأفضي إليك بالسرّ، فكن على حذر، وسأخبرك بحقيقة الأمر، واعلم أن هذا الرجل الذي رأيته في الصباح فقيرًا ثم أصبح ملكًا كبيرًا إنما هو رجل مسكين فلا تغبطه على ما وصل إليه، وما أصبح فيه من مُلْك كبير وقصر منيف وسلطان وصولجان، لأنه ما إن يمر عام حتى يجردوه من ملكه وسلطانه ثم يأخذونه إلى جزيرة جرداء كالصحراء فينبذونه هناك فيهلك جوعًا وعطشًا! كما فعلوه من قبل برجال غرباء ملكوا كل واحد منهم عامًا واحدًا فقط ثم نبذوهم هناك في الصحراء في تلك الجزيرة القفراء!

وهذه سُنّة في أهل هذه المملكة، فإنهم يأخذون الرجل الغريب الذي يجهل أمرهم فيملّكونه عليهم عامًا واحدًا ثم يطردونه وينبذونه؛ وهو لجهله لا يشك في أن ملكه دائم وحكمه قائم؛ فإذا مرّت سنة من ملكه أخرجوه ونبذوه عريانًا مجردًا سليبًا، فيقع في بلاء وشقاء.

فلما سمع الرجل ذلك شكر الشيخ وعاد أدراجه إلى القصر.

وأمضى ليله يفكر في عاقبة أمره، فلما كان السحر انقدحت في ذهنه فكرة من بعد طول تأمل وتفكر، فيما سيؤول إليه أمره والمصير، فنزلت عليه الفكرة بردًا وسلامًا وحينئذ أغمض عينيه ونام.

وما أن طلع الفجر ولاح وأشرقت شمس الصباح حتى كان الملك جالسًا فوق عرشه مستيقظًا منتبه الحواس لم تبد عليه آثار السهر وطول التفكير حتى السحر!

وجاء القادة والوزراء فصرفهم إلى أعمالهم ثم أمر بإحضار رئيس المهندسين وكبير البنّائين، فلما حضرا صرف الجميع ولم يبق غيرهما، فأخذهما إلى ناحية من القصر وأفضى إليهما بعزمه على بناء قصر جديد وعيّن لهما مكانه وقال لهما:

ـ سأفتح لكما الخزائن تأخذان منها ما تشاءان! فرئيس المهندسين يخطط ويضع التصاميم وكبير البنّائين ينفّذ الخرائط والخطط ثم أمر آخر أريد أن يبقى هذا المشروع سرًا لا يعلم به أحد وأن يجري العمل ليل نهار، أما المدة فيجب ألا تكون أكثر من عام واحد فقط.

أريد أن أرى قصرًا من الرخام يتوسط الجزيرة تحوطه الحدائق الغنّاء والمزارع الخضراء!

وهكذا بدأت الزوارق والقوارب تنطلق إلى الجزيرة تحمل المؤن ومواد البناء والعمال وأصحاب الحرف.

وكان الملك يتابع عمليات البناء وحفر الآبار ونقل فسائل الأشجار وشق السواقي والأنهار.

وراح الملك يرسل إلى تلك الجزيرة الغلمان والجواري وثم تأثيث القصر بأنواع الأثاث الفاخر المرصّع بالدرر والجواهر وهكذا أصبحت الجزيرة المهجورة معمورة، وبات القصر جاهزًا للاستقبال، وبات الرجل في أشدّ الاستعجال! يترقب مرور الشهور والأيام واكتمال السنة والعام!

فلمّا دار العام جاء الجنود فأخذوه وكان من شدة سروره مشرق الوجه مبتسماً منشرح الصدر متأهبًا، يعرف أن عاقبة أمره إنه سيعيش في الجزيرة متنعمًا، فالرجل الأول قضى على نفسه بجهله وأصبح مُلكه وبالاً عليه. والرجل الثاني فاز بعقله وفكر في عاقبة أمره فآل إلى ما آل إليه.

وهذه هي حال الدنيا والآخرة فمن يعمل للدنيا يكون مصيره مصير ذلك الرجل الجاهل ومن يعمل للآخرة يكون مصيره مصير ذلك الرجل العاقل.

(**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) .

نوادر في البيان والبلاغة والفصاحة

حكي أن البادية قحطت في أيام هشام الأموي، فقدمت عليه العرب، فخافوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل عليَّ إلّا دخل، حتى الصبيان !! فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً فقال: يا أمير... إن للكلام نشراً وطياً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلّا بنشره، فإن أذن لي الأمير أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه، وقال له: انشره لله درك، فقال: يا أمير ... إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دَقَّتْ العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم، فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين.

فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين، فخرج من عنده وهو من أجلِّ القوم.

(المستطرف في كل فن مستظرف/ الأبشيهي/ ج١ ص٩٢)

أجوبة مسابقة العدد (٧٧)
وأسماء الفائزين

السـؤال الأول: ج ـ سنة ٩٥.

السـؤال الثاني: ب ـ الرحلة المدرسية.

السـؤال الثالث: أ ـ اذا توفيت وفارقتنا وفيهم في الملك من يطمع

السـؤال الرابع: ج ـ الإمام الصادق عليه السلام.

السؤال الخامس: ب ـ عند الميزان.

السؤال السادس: أ ـ ٥٠ رحلة.

السـؤال السابع: أ ـ خمسة أئمة.

السـؤال الثامن: ب ـ مسجد الخيف.

السـؤال التاسع: أ ـ ربيع بن سليمان.

الفائز بالجائزة الأولى: أحمد حسين محمد / بغداد / الشعلة.

الفائز بالجائزة الثانية: ناهدة حسين جعاز / بغداد / مدينة الصدر.

الفائز بالجائزة الثالثة: علي عبد العال مهنا / النجف / الكوفة.

على الفائزين مراجعة مقر المؤسسة لاستلام جوائزهم

ويسقط حق المطالبة بالجوائز بعد مرور ثلاثة أشهر من صدور العدد.

مسابقة العدد (٧٩)

١ (وإنهم المصلون العابدون الذين ينكرون الظلم ويستعظمون البدع ولا يخافون في الله لومة لائم) فقرة من كلام بعثه الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية واصفاً به أصحاب حجر بن عدي، الذين اغتالهم ظلماً وغدراً وعدوناً، فكم كان عددهم ما عدا صاحبهم حجر؟

أ- أربعة ب- خمسة ج- ستة

٢ يا رب إن مسلماً أتاهمُ ..... بمحكمِ التنزيلِ إذ دعاهم
يتلو كتاب الله لا يخشاهم .... فرمّلوه رُمّلتْ لحاهم

أبيات قيلت في حق مسلم المجاشعي وهو أحد أصحاب أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، قتل في واقعة الجمل بعد أن قطعوا يديه وهو يدعو الناس إلى القرآن والاحتكام إليه، فمن رثاه بالأبيات المتقدمة؟

أ-أمه ب- أبوه ج- أبو الأسود الدؤلي

٣ المقداد بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهرائي، ويعرف بالمقداد بن الأسود من أوائل المسلمين وأحد السبعة الذين اظهروا الإسلام، لازم الإمام علي عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله كما تشرف بحضوره تشييع جثمان سيد النساء عليها السلام ، وصفه الإمام الصادق عليه السلام بقوله (إن منزلة المقداد في هذه الأمة كمنزلة ....، لا يلزق بها شيء) فأي منزلة أرادها الإمام عليه السلام؟

أ- الباء من البسملة ب- الألف في القرآن ج- الفاتحة من السور

٤ لما قتل الحمزة بن عبد المطلب عليه السلام ودفن بأُحد عاد النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة فمر في دور الأنصار من بني عبد الأشهل فسمع البكاء على قتلاهم فذرفت عيناه وبكى وقال: لكن حمزة لا بواكي له، فتطوع اثنان من الصحابة وذهبا لنساء عبد الأشهل، وطلبا منهن أن يندبن ويبكين الحمزة مواساة لرسول الله صلى الله عليه وآله، ففعلن ذلك، فمن هذان الصحابيان؟

أ- عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان
ب- سعد بن معاذ وأُسيد بن حصين
ج- المقداد بن الأسود وسلمان الفارسي

كوبون المسابقة

تنابيع

٧٩

جواب السؤال الأول
أ ب ج

جواب السؤال الثاني
أ ب ج

جواب السؤال الثالث
أ ب ج

جواب السؤال الرابع
أ ب ج

الاسم الثلاثي:

العنوان:

٥ الحسين بن الإمام علي زين العابدين عليه السلام، يعرف بالأصغر، كان عفيفاً محدثاً فاضلاً، يكنى أبا عبد الله، أمه أم ولد تسمى ساعدة، توفي في المدينة المنورة ودفن بالبقيع، ففي أي سنة كانت وفاته؟

أ- ١٥٧هـ ب- ١٦٠هـ ج- ١٦٤هـ

٦ ورد في كتاب مهج الدعوات قصة رجل يدعى سعيد بن أبي الفتح أصابه مرض، فتناول كتاباً من كتب أبيه فوجد على ظهره حديثا للإمام الصادق عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله: من كان به مرض فليقل أربعين مرة عقيب صلاة الفجر: (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل ...)، ففي أي مكان ذكرت هذه القصة كما جاء في مهج الدعوات؟

أ- مشهد الصادق بالجامعين ب- مسجد السهلة ج- المسجد النبوي

٧ لما منعت فاطمة عليها السلام فدكاً، أقبلت إلى جمع من المهاجرين والأنصار فخطبت فيهم خطبة عظيمة تطرقت فيها للظلم والحيف الذي وقع عليها بُعيد رحيل أبيها، وختمت خطبتها بآية من القرآن الكريم، فأي آية كانت؟

أ-(بئس للظالمين بدلا)

ب- (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)

ج- (وانتظروا إنا منتظرون)

٨ (سبحانك اللهم وحنانيك، سبحانك اللهم وتعاليت، سبحانك اللهم والعز إزارك، سبحانك اللهم والعظمة رداؤك) فقرات من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في التسبيح رواه عنه سعيد بن المسيّب حينما رافقه في بعض الطريق، فمن أي جهة انطلق الإمام عليه السلام؟

أ- مكة المكرمة ب- المدينة المنورة ج -الكوفة

٩ عن زرارة ومحمد والعجلي قالوا: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام لحمران بن أعين في شيء سأله: إنما يهلك الناس لأنهم لا يسألون، فأي هلاك قصده الإمام عليه السلام؟

أ- الهلاك الأخروي ب- الهلاك الدنيوي ج- الهلاكان معاً

كوبون المسابقة

جوائز المسابقة

الأولى: ١٠٠,٠٠٠ دينار. الثانية: ٧٥,٠٠٠ دينار.
الثالثة: ٥٠,٠٠٠ دينار. يتعين الفائز بإجراء القرعة.

شروط المسابقة

* الإجابة عن ثمانية أسئلة فقط. * يوضع الكوبون في ظرف و
مع الاسم الثلاثي الصريح والعنوان الكامل ورقم الهاتف بوض
وبخلافه تهمل الإجابات. * آخر موعد لاستلام الأجوبة هـ

جواب السؤال السابع: أ ب ج

جواب السؤال السادس: أ ب ج

جواب السؤال التاسع: أ ب ج

جواب السؤال الخامس: أ ب ج

جواب السؤال الثامن: أ ب ج

تشاهدون

قناة المنهاج الفضائية

MINHAJ TV CHANNEL

برنامج

بحوث واختراعات

القمر: نايل سات

التردد: 11641 أفقي

معدل الترميز: 27500

www.minhaj-tv.com | info@minhaj-tv.com | (+964) 0781 777 7065 | 0771 777 7065

عتباتنا | صورة قديمة لمراب أمير المؤمنين (عليه السلام) في مسجد الكوفة المعظم أخذت عام ١٣٢٣ هـ